

الدولة العثمانية والمسلمون
في جنوب إفريقيا

دراسة وثائقية للفترة من ١٨٥٦ - ١٨٧٨

أ . د السيد علي أحمد فليفل

مركز دراسات المستقبل الإفريقي
القاهرة
١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠م

(سلسلة أوراق إفريقية ؛ ٣)

مركز دراسات المستقبل الإفريقي
٢٦ ب - ش الجزيرة الوسطى - الزمالك - القاهرة - ج.م.ع.

بيانات الفهرسة أثناء النشر - مكتبة المركز بالقاهرة
فليفل ، السيد علي أحمد
الدولة العثمانية والمسلمون في جنوب إفريقيا : دراسة وثائقية
للفترة من ١٨٥٦م - ١٨٧٨م / السيد علي أحمد فليفل
القاهرة : مركز دراسات المستقبل الإفريقي ، ٢٠٠٠م.
٨٥ ص ، ٢٤سم (سلسلة أوراق إفريقية ؛ ٣).
يشتمل على إرجاعات ببليوجرافية
تدمك ٨ - ٠٧ - ٥٧٧٥ - ٩٧٧.
١- الدولة العثمانية - جنوب إفريقيا والمسلمون
أ - العنوان. ب- السلسلة.
رقم التصنيف : ٩٥٣,٠٩
رقم الإيداع: ٩٨/١٥٦٣٨

المحتويـــــات

مقدمة

أثناء إعدادي لرسالتي للدكتوراه وكان موضوعها : « مستعمرة الرأس البريطانية ١٨٥٣ - ١٩١٠ » ، لفت نظري طلب بعض أئمة المسلمين في كيب تاون السماح لهم بالاحتفال بعيد ميلاد السلطان العثماني في إحدى سنوات ستينيات القرن التاسع عشر ؛ وهو الطلب الذي ورد في إحدى وثائق المستعمرة التي حصلت عليها من دار المحفوظات البريطانية P . R . O . وقد ظللت منشغلا بالبحث عن صلة الدولة العثمانية بمسلمي الكيب أو رأس الرجاء الصالح ، حتى قيض لي أن أتمكن من الحصول على ملف لوزارة المستعمرات البريطانية يتناول هذا الموضوع ، ويزيد عليه بدراسة أحوالهم ، وأحوال مسلمي مستعمرة ناتال البريطانية أيضا ، وصلتهم بهذه الدولة وسرعان ما اكتشفت أنني وقعت على صيد وثائقي ثمين .

وكان أحد مسئولي وزارة المستعمرات في لندن قد كلف بزيارة كيب تاون ، لبحث طلب الدولة العثمانية تعيين أحد نواب برلمان مستعمرة الكيب قنصلا عاما لها . وكان علي أن التقط الخيط ، وأسعى لاستكمال المادة العلمية والتاريخية التي تتناول القوم ، سيما وأنا أعلم مدى ندرتها وقلتها منذ الدراسة آنفة الذكر .

ولقد ساعدني التقدم المذهل في مجال تخزين المعلومات وبرمجتها على أن أطلب بحثا آليا عن الموضوع من جامعة الرياض فتوفرت لدي كافة الكتابات التي تناولته، حتى لو كانت سطرا واحدا شاردا واردا في مرجع ما . . ومن ثم أمكن الرجوع إلى مصادر شتى من وثائق ومراجع ودوريات أجنبية وعربية تناولت الموضوع بدرجات متفاوتة التركيز . ورغم ذلك فقد ظل ملف وزارة المستعمرات آنف الذكر هو المصدر الأقوى والأغزر مادة .

وبفحص المادة المتاحة استرعى انتباهي عدم وجود أية مادة تركية حول الموضوع . وبإعادة البحث الآلي في جامعة لندن هذه المرة ، فإنه قد استبان لي أن الحكومة العثمانية أيضا أوفدت أحد محرري دورية فرنسية تصدر في القسطنطينية إلى جنوب أفريقيا لإعداد دراسة عن حالة مسلميها . وقد قام الرجل بالفحص في دار الوثائق

بكيب تاون ، واستعان بذات المصادر التى رجع إليها مسئول ورزارة المستعمرات البريطانية قبل بضعة أعوام . وعلى الرغم من أن المحرر الموفد من القسطنطينية ماكسميليان كوليش كتب كتابه باللغة الإنجليزية ، فقد كان يخدم الهدف العثمانى الذى من أجله زار كيب تاون وبورث اليزابيث وايست لندن وغيرها من مدن الجنوب ، ويمكن اعتباره ممثلا لوجهة النظر العثمانية حول الموضوع .

وقد التقت وجهتا نظر المبعوث العثمانى ومبعوث وزارة المستعمرات البريطانية فى كثير من المسائل ، نظرا لرجوعها لذات الوثائق من ناحية ، وكذلك لاتساق السياسة البريطانية مع نظيرتها العثمانية فى فترة الدراسة من ناحية أخرى . كما أن المصادر الأخرى والمراجع والدوريات قدمت إضافات هامة ، وإن تكن محدودة ، ولولاها ما خرج البحث على هذا النحو الذى نرجوه مثمرا وجديدا وجديرا بالمطالعة .

ولعلنا بحاجة إلى أن نبرر سنتى البدء والنهاية (١٨٥٦ – ١٨٧٨) . والواقع أن المادة الوثائقية أشارت إليهما ، فصارتا بالتالى أمرا فرضته هى أكثر مما اخترناه نحن . على أننى صرفت ذهنى إلى التفكير فيهما ، وقمت من ثم بمراجعة التاريخ العثمانى ، وعلاقات القوى الأوروبية وتوازناتها بشأن تلك الدولة ، فوجدت أن ذينك التاريخين ، وتلك العلاقات والتوازنات ، تحفل بالعامين المذكورين وتركز عليهما. فالأول صدر فيه خطى شريف همايون ؛ الذى كان شديد الدلالة فى صلته بكل من مؤتمر باريس وحرب القرم ؛ والثانى صدر فيه الدستور العثمانى ، والذى كان أيضا شديد الدلالة فى صلته بالأزمة الروسية العثمانية ومؤتمر برلين ، وهو ما سيوضحه البحث ويكثف الأضواء عليه .

وبين سنتى البدء والنهاية كثف البحث الضوء على أسباب ومظاهر ونتائج اهتمام الدولة العثمانية بمسلمى جنوب أفريقيا ، والذين حظوا بذلك الاهتمام ، رغم البعد الشاسع بينهم وبين تلك الدولة . على أننى لم أشأ أن أحدد الأسباب والمظاهر والنتائج بشكل مدرسى ؛ وما كان أسهل ذلك ، وإنما شئت أن تنساب المادة فى اتساق ، بحيث تترابط الأسباب والمظاهر والنتائج وتتفاعل ، ويسلم كل منها للآخر ، وبحيث تجرى أحداث التاريخ على صفحات البحث مثلما تقع فى حياة البشر ، منسابة ، متسقة ، مترابطة ، متمايزة ، متداخلة ، متفاعلة ، بل ومتناقضة ومتناغمة كل فى آن .

ولقد حاول البحث الذى يلى صفحات هذه المقدمة أن يجيب على أسئلة عديدة، ثارت بمجرد التوصل إلى فكرته ، وحتى قبل أن تكتمل الوثائق التى ساعدت على الاجابة عليها . ومن تلك الأسئلة : ما الخطوط العامة لتاريخ مسلمى جنوب أفريقيا ؟ ومن أين جاء مسلمو مستعمرة رأس الرجاء الصالح ؟ ومن أين جاء مسلمو مستعمرة ناتال ؟ وماذا كان موقف حكومة شركة الهند الشرقية الهولندية منهم؟ وما موقفهم من حكامها ؟ وما موقف الحكم البريطانى منهم فى كل من مستعمرتى الرأس وناتال ؟ وما موقف مسلمى المستعمرتين من هذا الحكم ؟ ومنزلتهم الاجتماعية فيها ؟ وكيف عاشوا ؟ وكيف مارسوا عباداتهم ؟ وكيف جاءت الظروف التاريخية لاتصالهم بالدولة العثمانية ؟ وما هى العوامل التى حدت بالدولة العثمانية إلى الاتصال بمسلمى جنوب أفريقيا ؟ وما هى العوامل التى جعلت بريطانيا تشجع هذا الاتصال أو على الأقل لا تمنع حدوثه ؟

وقد رأيت أن من الملائم تقسيم البحث إلى ثلاثة فصول : كان أولها - معلقا بالعثمانيين وموقفهم من قضية الدين ، ومدى تأهيل ظروف الفترة التاريخية المعنية بالدراسة ، لهم ، للقيام بدور حيال مسلمى الجنوب . وكان ثانيها - متعلقا بمسلمى الجنوب وأوضاعهم تحت الحكم الأوروبى ، ومدى استعدادهم لتلقى دور عثمانى نشيط ، ومدى تقبل هذا الحكم لهذا الدور . وكان ثالثها - متعلقا بالدولة العثمانية وسعيها للعب الدور المذكور تجاه مسلمى الجنوب ، ثم ما أسفر عنه ذلك من تعيين أول قنصل عثمانى فى كيب تاون ودوره فى رعاية المسلمين وربطهم بالدولة العثمانية بروابط الولاء الدينى والمصلحة المشتركة .

بيد أن ذلك التقسيم لا يمنع من الإقرار بأن الفصلين الأولين ليسا سوى مجرد توطئة للفصل الثالث والأخير ، والذى هو رأس البحث وعموده وذروه سنامه ، وهو الذى يحمل ملامح الجد العلمى والجدة التاريخية معا ، ويمثل إضافة أعتز بها للدراسات التاريخية ؛ أكدت أن الفصل الجغرافى بين تاريخ منطقة وأخرى أمر غير علمى ، مثلما أن الفصل التاريخى بين تاريخ بلد فى عصر ما وتاريخه فى عصر تال أمر غير علمى أيضا . ذلك أن تاريخ البشرية - سيما فى العصور الحديثة - يؤكد ضرورة الإلمام بالتاريخ الإنسانى العام إلماما دقيقا ، باعتباره الإطار الخارجى لأية دراسة لإقليم ما فى عصر ما .

وأخيراً فإن ما يسمى بالتاريخ « الإنسانى » العام ، الذى ينقسم بدوره إلى

تواريخ عدة لعصور متتالية ، ولأقاليم متعددة ، لا ينفى أن الإنسان لم يكف عبر تاريخه أن يكون « إنسانيا » ، أو أن يحاول أن يكون « إنسانيا » ، وذلك ملمح هام سوف يجده القارىء الكريم فى صورة أول قنصل عثمانى عام فى كيب تاون .

ولعل النتيجة التى أسلم بها فى ختام هذه المقدمة أننا مطالبون بمزيد من الجهد لاستكمال أمثال هذه الدراسات عبر السنوات القادمة ، سواء لمتابعة تاريخ مسلمى الجنوب الإفريقى ، أم لمتابعة ارتباطاتهم الخارجية بكل من أندونيسيا وبلاد الملايو والهند ومصر وغيرها . وهذا واجب يتطلب جهدا جهيدا ، سيما مع التغيرات التى تعترى الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى جنوب أفريقيا ، وتزايد صلاتها بمصر ، وما يمكن أن يشكله ذلك من طرح تلك الدولة كدولة إفريقية متحضرة ، تلعب دوراً فى تنمية القارة ، وتشارك فى قيادتها جماعة أوروبية ، وتمثل موضوعا مثيرا جديرا بالدراسة لما قد تشكله من عوامل التنسيق أو التنافس مع السياسة المصرية فى إفريقيا . وسيشعر القارىء الكريم بالحاجة لأمثال تلك الدراسات بعد ما ينتهى من قراءة البحث .

لكل ذلك ، أعتقد أن الجهد ينبغى أن يضاعف ، وأن الوثائق التاريخية صارت مبتغى هاما وملحا ، وأن الكتابة التاريخية ينبغى أن تأخذ مسارات مجدية بحيث تتحقق « الجدوى التاريخية » ، مثلما يحرص الاقتصاديون على أن تكون للمشروعات « جدواها الاقتصادية » .

وبالله التوفيق وهو المستعان

* * *

الفصل الأول

العثمانيون وقضية الدين

اعتنق العثمانيون الإسلام طوعا منذ وقت مبكر ، يسبق عهد عثمان مؤسس دولتهم ، وصار الإسلام هو شريعة الدولة ومصدر قوانينها ، وقد تعاقب عليها حكام حافظوا على هذا الوضع . وبعد فتح محمد الثانى (١٤٥١ - ١٤٨١) للقسطنطينية واتخاذه إياها عاصمة للدولة العثمانية ، أطلق لقب شيخ الإسلام على مفتى أدرنة ، وأطلق على العاصمة اسم استانبول أى دار الإسلام ثم نال شيخ الإسلام لقبا آخر هو لقب رئيس العلماء .

الدولة العثمانية إذن كانت دولة إسلامية الطابع ، للهيئة الإسلامية فيها وضع مرموق ، تحت قيادة مفتى استانبول ، الذي حمل أيضا لقب « شيخ الإسلام » . وكان له دور جسيم فى إصدار فتاوى الحرب وعقد الصلح ، والتنشئة الإسلامية للجند العثمانيين [١] . وقد نوه الجبرتى باهتمام السلاطين العثمانيين « بإقامة الشعائر الإسلامية والسنن المحمدية ، وتعظيم العلماء وأهل الدين ، وخدمة الحرمين الشريفين ، والتمسك ، فى الأحكام والوقائع ، بالقوانين والشرائع ، فتحصنت دولتهم ، وطالت مدتهم ، وهابتهم الملوك ، وانقاد لهم المالك والمملوك» [٢] .

وانطلاقا من ذلك اعتبرت الدولة العثمانية نفسها دولة الإسلام ، ومن ثم حملت نفسها مسئولية رعاية شئونهم ، والدفاع عنهم ، سيما وأن اصطدامها بالقوى المسيحية الأوروبية أعطى لها طابعا يقوم على الجهاد ، فى عصر اتسم بحدة المواجهة الدينية فى أعقاب عصور الحروب الصليبية . كذلك فإن تلكم الدولة صارت دولة عالمية ، تضم شعوباً شتى ، وقوميات عدة ، وديانات متنوعة ، وهى وإن كانت دولة إسلامية سنية ، شافعية المذهب ، فهى تحكم رعايا من أتباع ديانات شتى . ولقد سلمت الدولة لهم بحق ممارسة شعائرهم بحرية ، ووفرت لهم الحماية فى أرواحهم وممتلكاتهم ، بينما كانت أوروبا تموج بصراع مذهبى عنيف بين الأرثوذكس والكاثوليك أولا ، ثم بين الأخيرين والبروتستنت ثانيا [٣] .

---

(١) عبد العزيز محمد الشناوى : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، الجزء الأول ، الأنجلو المصرية ، مطبعة جامعة القاهرة ، (١٩٨٠) ، ص ص (٩ ، ٥٤ ، ٤٠٠ ، ٤٠١) .

(٢) عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، القاهرة ، بولاق ، (١٢٩٧ هـ) ، الجزء الأول ، (ص ٢١) .

(٣) عبد العزيز الشناوى : مرجع سابق ، ص ص (٩٠ - ٩٤) .

وعلى الصعيد الإسلامى فقد تدعمت سياسة العثمانيين بجعل أنفسهم حماة الإسلام والمسلمين ، وأصحاب دولة الإسلام الكبرى ، بهيمنتهم على الاماكن المقدسة فى مكة والمدينة والقدس ، إضافة إلى مزارات الشيعة فى العراق . ولقد تدثر السلطان العثمانى بلقب « حامى حمى الحرمين الشريفين » ، ثم لقب «خليفة» بعد ذلك [١] . ثم إن السياسة العسكرية العثمانية فى أوروبا ، والصراع السياسى فيها ، كل ذلك اعتبر جهادا مقدسا من لدن مسلمى العالم ، مثلما اعتبرت السياسة المضادة ، والحملات الحربية الأسبانية ضد مسلمى الأندلس حربا صليبية مقدسة[٢] .

وهكذا ارتبط لقب السلطان السياسى الطابع ، بلقب الخليفة الدينى الطابع ، كما صارت الدولة ذات صبغة دينية ، وقوانينها ذات قداسة ، بحكم حرصها على مراعاة الشريعة [٣] . وكان السلطان هو رأس الهيئة الإسلامية فى الدولة ، وهو يعين قادتها من العلماء والمفتين والأئمة الكبار ، بينما كان العثمانيون يؤمنون بالإسلام إيمانا راسخا ، ويعتبرون أنفسهم مسلمين قبل كل شيء . وكان ولاؤهم للإسلام ثم للسلطان ثم للدولة آخر الامر . وفى عصور كان الدين فيها رابطة هامة بين الحكام والمحكومين ، بل ومحددا هاما من محددات العلاقات الدولية ، اعتبر

---

(١) لم يتلقب سلاطين الدولة العثمانية بلقب الخليفة أول الأمر بل تلقبوا به فى مرحلة تالية ، وساعد على تسهيل حكمهم للمسلمين :

راجع ساطع الحصرى . البلاد العربية والدولة العثمانية ، معهد الدراسات العربية العالية ، (١٩٥٧ ، ص ص ٣٣ - ٣٦) .

وراجع : حسن إبراهيم حسن وآخرون : المجمل فى التاريخ المصرى ، الطبعة الأولى ، (١٩٤٢ ، ص ٢٤٤) وما بعدها حيث ذكر المناقشات المطولة حول نزول الخليفة المتوكل لسليم الأول عن الخلافة .

(٢) عبد العزيز الشناوى : مرجع سابق ، (ص ص ١٨٤ - ١٨٥ ، ٣٤٤) ، وكذلك محمد فؤاد كوبريلى: قيام الدولة العثمانية ، ترجمة الدكتور أحمد السعيد سليمان ، القاهرة (١٩٦٧ ، ص ص ٨- ٢٥ ، ٢٥٩ - ١٢٣) ، وانظر كذلك :

- Hurewits , J . C . : Diplomacy in the Near East ,
A Documentary Reord , Vol . 1 , N . Y . , P . 113 , Document No . 48 .

(٣) - Gibb , H . A . , R . nd Bowen , Hrold :
Islamic Society and the West , A Study of the Impact of the Western Civilization On Moslem culture in the Near East , vol . 1 , part 1 ,
Oxford , 1950 , Chapter 1 : The Ottoman Empire and the Sacred Law , pp . 19 - 25 , and Chapter 2 : Caliphate And Sultanate , pp . 26 - 38 .

المسلمون الدولة العثمانية هى دولة الإسلام ، واعتبروا السلطان هو الوريث الفعلى للرئاسة الدينية ، وحامى حمى الإسلام . وكانت كافة الشعوب تحمل اسمها الوطنى واسم الدولة العثمانية معا ، فهذا نجدى وهذا مصرى ، أو ألبانى ، أو طرابلسى وهم جميعاً عثمانيون سواء بسواء (١) .

على أنه من الملاحظ أن الدولة العثمانية ، حين أوغلت فى التوسع فى أوروبا خضعت لسلطانها شعوب مسيحية كثيرة ، بحيث يصعب وصفها بأنها أقلية دينية، بل كان المسلمون فى البلقان - على سبيل المثال - أقلية دينية ، لكن هذا لم يمنع من اعتبار الدول الأجنبية السلطان زعيم المسلمين ، ورمز وحدتهم . ومع كل ذلك فإن الدولة العثمانية عانت وبشدة من محاولات الاستقلال التى اندفع إليها ولاتها الطموحون كالقرمانليين فى ليبيا ، وعلى بك الكبير ثم محمد على فى مصر ، والسعوديين فى نجد ، فضلا عن خروج اليمن على فترات طويلة ومتعاقبة على الحكم العثمانى ، ثم عدم قبول المغرب الأقصى به أساسا ، إضافة إلى الأزمات المتعاقبة فى الشام وجبل لبنان ، سيما مع مطلع النصف الثانى من القرن التاسع عشر . فإذا كان هذا هو حال البلدان العربية الإسلامية ، فقد كان الأمر أشد وطأة فى الولايات الأوروبية ذات الأغلبية المسيحية (٢) .

وقد ترتب على التوغل العثمانى فى أراضى أوروبا الشرقية ، وحكمها لشعوب مسيحية أن جنحت إلى اتباع نظام الملل بمعنى تصنيف رعاياها إلى مسلمين وغير مسلمين بغض النظر عن الجنس واللغة والقومية . وكان الروم الأرثوذكس هم أهم ملة غير إسلامية فى الدولة ، وكان لهم بطريرك يقيم فى العاصمة ، وكان له إشراف على كل الأرثوذكس فى الدولة ، بما فى ذلك مناطق الصرب والبلغار واليونان وغيرها . وكانت هناك ملل أخرى كالأرمن واليهود . والكاثوليك فى البلقان (٣) .

---

(١) عبد العزيز الشناوى : مرجع سابق ، ص ص (٤ ، ٩ ، ١٠ ، ١٢٢) ، وكذلك :
توفيق على برو : العرب والترك فى العهد الدستورى العثمانى (١٩٠٨ - ١٩١٤) ، معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ، (١٩٦٠) ، (ص ٣) .

(٢) نفس المرجع (ص ٤) ، وكذلك ساطع الحصرى ، مرجع سابق ، ص ص (٣٦ - ٣٧) ، وكذلك ص ص (٩٤ - ٩٦) .

(٣) عبد العزيز الشناوى : مرجع سابق (ص ٦٨) ، وكذلك :
Alderson , A . D . : The Structure of the ottoman Dynasty , Oxford , 1956 , p . 16 .

وكان السلطان العثمانى يعين بطريركا يونانياً رئيسا للكنيسة الكاثوليكية كما يعين الرؤساء الدينيين لليهود ، ويصدر بذلك فرمانات توجب على كل طائفة دينية طاعة رئيسها الروحى فى المسائل الدينية ، بيد أنه يجب الاعتراف بأن خضوع هذه الشعوب المسيحية كان نتيجة للوجود العسكرى العثمانى الثقيل ، إذ اعتبرت الحكم العثمانى حكما بغيضا ومخالفا ، فى اللغة والجنس والقومية والعقيدة ، ويمثل احتلالا عدوانيا ، على عكس الحال فى العالم الإسلامى[1] . وكان ذلك أمرا طبيعيا ، فقد اعتبر العثمانيون منطقة الأناضول دار السلام ، وروميليا Rumelia أى الأوروبية دار حرب[2] ، وكان أبغض ما فى السياسة العثمانية - بالنسبة للمسيحيين - هو قيامها بجمع « القولار » أى الغلمان الصغار الأرقاء من الولايات المسيحية وتولى تعليمهم تعليما إسلاميا ، وتدريبهم على شغل وظائف الدولة التنفيذية سواء فى البلاط أو فى الجيش أو الإدارة ، وكانت للقولار امتيازات كبيرة، جعلت مسلمى الدولة الأحرار يحقدون عليهم ، حتى صاروا ينافسونهم فى هذه الوظائف ، معتبرين أنفسهم أولى بهذه المناصب من القولار الذين تدللهم الدولة وتحنو عليهم ، حتى كسروا احتكارهم لها [3] .

وإضافة إلى اتباع الدولة العثمانية لنظام الملل ، وحكمها الولايات المسيحية بنظام يعتمد على القولار ، فإن موقف الدولة من المسيحيين ارتبط بموقف تاريخى على جانب كبير من الأهمية والدلالة معا ، كما أنه صار القاعدة الشرعية التى حكمت سياسة الدولة إزاء شرق أوروبا ، الذى شكل المسيحيون - بقومياتهم المتعددة - غالبية سكانه ، وكان العثمانيون فيه أقلية ضئيلة العدد . ويرجع هذا الموقف إلى الطبيعة العنصرية والأصول القبلية للسلطة السياسية العثمانية ، فقد درج العثمانيون على الاستعلاء على الشعوب التى يحكمونها ، واعتبارها شعوبا مختلفة لغة ودينا وجنسا وقومية وفكرا . ومن ثم لم يقبل العثمانيون على الزواج منهم ، أو الاختلاط بهم ، وساعدت الطبيعة القبلية للممارسة السياسية العثمانية على ذلك، على حد قول المؤرخ الكبير توينبى ، إذ ذكر أن العثمانيين استخرجوا

---

(١) الشناوى : مرجع سابق ، ص ص (٣٥٤ - ٣٥٦) .

(٢) Alderson , A . D . : Op .Cit . , p . 19 , , also , H . A . R . and Bower , Harold : Op . Cit . , pp . 235 - 242 .

(٣) عبد العزيز الشناوى : مرجع سابق ، ص ص (١٢٦ - ١٢٩) .

فكرتهم عن الحكم من حياتهم الرعوية ، فاعتبروا أنفسهم رعاة ، واعتبروا الخاضعين لهم رعايا أو شياه ، واعتبروا جيشهم كلب الحراسة الأمين لها (١) .

وعلى الرغم من تدين العثمانيين ، ومن أن الإسلام دين غير عنصرى ، فقد كان العثمانيون بحاجة إلى هزة شديدة تنقى ممارستهم من العنصرية وتنفى عن الإسلام الذى يدينون به شبهة الالتصاق بممارسة معتنقيه ، وجاءت هذه الهزة ، وذاك الموقف التاريخى ، حين كان السلطان سليم الأول (١٥١٢ - ١٥٢٠) مشغولا فى حروبه الآسيوية ، ويخشى من ثورة شعوب شرق أوروبا انتهازاً لتلك الفرصة، ومن ثم قر رأيه على أن يعرض على رعاياه المسيحيين أحد أمرين لا ثالث لهما ، وهما : إما اعتناق الإسلام أو القتل ، ويرى بعض المؤرخين (٢) أنه كان متأثرا فى ذلك بأنباء محاكم التفتيش ومذابح الموريسكيين فى أسبانيا ، وإجبار المسلمين على اعتناق المسيحية (٢) .

ولما كان السلاطين العثمانيون حريصين على دعم مواقفهم السياسية بسند شرعى، فقد طلب سليم الأول من شيخ الإسلام فتوى فى هذا الشأن ، وقدم له معلومات غير صحيحة للوصول إلى مراده ، فتم له ذلك ، بيد أن شيخ الإسلام المدعو الشيخ جمالى سرعان ما اكتشف خديعة السلطان له ، وأصدر فتوى شاملة صارت ميثاق السلاطين العثمانيين بعد ذلك إزاء معاملة الرعايا المسيحيين فى الدولة، رغم أنف الدمويين منهم ، فقال الشيخ: « إن شريعة الإسلام تسمح لأهل الكتاب جميعا مسيحيين ويهودا بالبقاء على دينهم، طالما أنهم يدفعون الجزية كبدل نقدى يعفيهم من التجنيد ، وأن ممارستهم شعائرهم الدينية بملء حريتهم حق مكفول لهم، وأن على الدولة أن تتكفل بالمحافظة على أرواحهم وممتلكاتهم » (٣) .

وقام الشيخ من فوره بإبلاغ الفتوى إلى البطريرك اليونانى فى استانبول ، بصفته رئيس أكبر ملة غير إسلامية فى الدولة . واعتبر الأخير الفتوى ميثاقا ومستندا يدرأ به عن المسيحيين أى اضطهاد دينى قد يتعرضون له .

---

(١) عبد العزيز الشناوى : مرجع سابق ، (ص ٤١٤ - ٤١٦) .

(٢) Lyber , Albert Howe : The Govemnment of the Ottoman Empire in the Time of Suleiman the Magnificent , Harvard Univ . press , 1913 , pp . 209 - 210 .

(٣) محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثمانى ، أسباب انحطاط الامبراطورية العثمانية وزوالها ، بيروت، (١٩٥٤) ، (ص ص ١١ - ١٤) .

أما السلطان سليم الاول فأذعن لرأى الشيخ وفتواه ، فيما يشبه الاعتذار عن تدليسه فى المعلومات التى قدمها له أول مرة .

ولعل أعظم ما فى هذه الفتوى جملة أمور أولها – أنها جاءت مخالفة لاتجاه ورأى السلطان ، بل وسياسته الإرهابية العنيفة قِبلَ رعاياه المسيحيين ، وثانيها – أنها جاءت مخالفة لاتجاه الحياة الأوربية فى هذه الفترة ، والتى كانت تموج بتيارات كقطع الليل المظلم من الصراعات الدينية بين مسلمى ومسيحيى أسبانيا ، والصراعات السياسية والعسكرية والبحرية فى البحار الشرقية بين المسلمين والأوربيين ، وكذلك الصراعات المذهبية بين الكاثوليك والبروتستنت من المسيحيين، التى بدأت بوادرها فى التصاعد فى ذات الفترة . وثالثها – أن الفتوى أكدت أنه على الرغم من الطابع الدينى والعسكرى والعنصرى للدولة العثمانية ، فإنها لم تكن محكومة بالتعصب الأعمى ، والقوة الغاشمة ، وأن شريعة الإسلام كانت مرعية الجانب ، مصونة الأركان ، وأنها حدت من عنف بعض السلاطين ، وعلى رأسهم سليم الأول نفسه [١] . ورابعها – أن الفتوى جنبت مسيحيى شرق أوروبا انتهاج سياسة عنيفة وقمعية إزاءهم ، كان يمكن لو اتبعت أن تسفر عن تهجيرهم من بلادهم وإحلال مسلمين أتراك محلهم ، ونشر الإسلام فى بلادهم[٢]. وخامسا وأخيرا – فإن الفتوى أبرزت صورة مفتى الإسلام كشيخ جليل، وعالم ضليع ، وصاحب كلمة مسموعة ، ومركز متفوق فى الدولة العثمانية ، وأنه كان المرجع الذى ترفع إليه الأمور ، إذا ما ادلهمت الخطوب ، أو يبادر هو بطرح وجهة نظره ، إذا ما رأى تلك الأمور تتفلت من الحكام بالخلاف للشرع . لقد بدا الشيخ سندا للشرعية وموجها للسلاطين نحو الحق ، يرد عاديتهم ومظالمهم ، إن تجاوزوا الشريعة [٣] وقد ظهر المفتى كشخص زاهد ، ولعل هذا الزهد شديد الارتباط باهتمام العثمانيين عامة بالتصوف والطرق الصوفية [٤] .

---

(١) عبد العزيز الشناوى : مرجع سابق ، (ص ٤١٥) .

(٢) Lybyer , A . H . , Op . Cite , p . 209 .

(٣) Ibid . , pp . 200 -2 .

عبد العزيز الشناوى : مرجع سابق : (ص ص ٤١٦ – ٤١٧) .

(٤) حسن إبراهيم حسن وآخرون : المجمل فى التاريخ المصرى ، الطبعة الأولى (١٩٤٢) ، (ص ٢٧٥ – ٢٧٧) ، وسيلعب تصوف العثمانيين دورا هاما فى حياة مسلمى جنوب أفريقيا ، كما سيظهر فى الصفحات التالية .

وإضافة إلى كل ما سبق فلقد أدت الخبرة العثمانية فى حكم الولايات إلى إقرار مبدأ هام يقضى بعدم فرض الأنظمة العثمانية الصرفة عليها ، لئلا يخل ذلك بالأوضاع الاقتصادية لها ، ومن ثم اكتفى العثمانيون بفرض السيطرة السياسية والعسكرية عليها . ولما كانت الدولة العثمانية قد حكمت شعوبا مختلفة وتتحدث بلغات متنوعة ، وتعتقد عقائد شتى ، فقد كان المبدأ المذكور عاملا مساعدا على احتفاظ تلك الشعوب بنظمها القديمة ، وحريتها فى التحدث بلغاتها ، وانتهاج عاداتها وتقاليدها ، وممارسة طقوس دياناتها علانية ، والتمتع بحرية التقاضى فى الأمور الشخصية والمدنية لدى رؤسائها الروحيين ، بيد أنه قد فُرض على الأقليات الدينية فى الدولة دفع الجزية ، مقابل الإعفاء من الخدمة العسكرية ، ومن ثم احتفظت كثير من الولايات بتنظيماتها القبلية والاقطاعية والإدارية فى ظل أمراء وراثيين يأتمرون بأمر الولاة والقادة العثمانيين [(١)] .

على أن الدولة العثمانية اعتراها ما يعترى الدول من ضعف وركود ، سيما فى القرن الثامن عشر وما يليه . ومن ثم بذل غير واحد من سلاطينها جهدا كبيرا لتصحيح أوضاعها ، وإدخال الإصلاحات الحديثة لربط الدولة بحالة التقدم السائد فى أوروبا . وكانت الهزائم التى ألحقها الجيش المصرى بالجيش العثمانى على عهد محمد على دافعا لبدء حركة التحديث . ونجح السلطان محمود الثانى (١٨٠٨ - ١٨٣٩) [(٢)] فى تطوير الجيش والإدارة والقضاء والشئون الدينية ، فضلا عن تنشيط الأوضاع الاقتصادية ، وقد اتبعت هذه الإصلاحات والتنظيمات نظم الغرب ، ولقيت تشجيعا من الدول الأجنبية وبخاصة بريطانيا [(٣)] ، والتى سعت إلى فتح أسواق الدولة لمنتجاتها من ناحية ، ودعمها فى مواجهة روسيا من ناحية أخرى ، سيما بعد أن فرضت عليها معاهدة هنكيار اسكله سى Hunkar Iskelesi (١٨٣٣) [(٤)] .

---

(١) توفيق على برو : مرجع سابق (ص ص ٣ ، ٤) .

(٢) ساطع الحصرى : مرجع سابق (ص ١٧٥) .

(٣) Parliamentary paper , 1841 , vol . 29 , p . 297 , in Hurewitz , j . c . : Op . Cit .

(٤) وعن معاهدة هنكار اسكله سى (١٨٣٣) راجع :

عبد العزيز الشناوى : مرجع سابق (ص ٢١٩ - ٢٢٠) .

وقد توالى الضغط الروسى والأوروبى على الدولة العثمانية طوال سنى القرن الثامن عشر الأخيرة والقرن التاسع عشر . وتمثل الثورة اليونانية فى العشرينات من القرن العشرين ، وثورات الإفلاق والبغدان - رومانيا الحالية - ودعم روسيا لها ، نقطة تحول فى سياسة العثمانيين إزاء الشعوب المسيحية فى شرق أوروبا واتجاهاتها الثورية والقومية ، وبصفة خاصة إزاء ما تبعها بعد ذلك من أزمة مصرية عثمانية ، وما اكتنفها من حرب فى الشام واسيا الصغرى ، إذ زاد تدخل الدول الأوروبية فى الشئون العثمانية بحجة حمايتها من واليها المتمرد محمد على [1] ، بل إن محمود الثانى توفى سنة ١٨٣٩ دون أن يعلم بهزيمة قواته أمام جيش محمد على ، تاركا وليا للعهد لم يزد عمره عن ست عشرة سنة [2] .

وفى هذه الظروف تولى السلطان عبد المجيد الأول (١٨٣٩ - ١٨٦١) [3] السلطة فى الدولة العثمانية ، ورأي مواصلة جهده للإصلاح من ناحية ، ومواجهة الدول الطامعة - سيما روسيا - من ناحية أخرى ، ثم محاولة نيل تأييد الدول الأوروبية المتعاطفة عن طريق اظهار الدولة كدولة متحضرة تستأهل هذا التأييد وذاك التعاطف. فاستهل حكمه بإصدار مرسوم خطى شريف جلخانه Hati Sherif Gul khneh والذى تلاه وزير خارجيته مصطفى رشيد باشا فى الثالث والعشرين من نوفمبر (١٨٣٩) فى حفل كبير بحديقة جلخانه ، وشهده كبار رجال الدولة والسفراء ووعد فيه بإدخال إصلاحات معينة كاحترام الحريات العامة والممتلكات الخاصة ، والأشخاص ، بصرف النظر عن معتقداتهم الدينية وأصولهم القومية ، ومساواة جميع الأديان أمام القانون . ومع ذلك فلم يتحول الوعد إلى حقيقة ، وإن كان قد يسر تقليص قوة محمد على وفرض معاهدة لتدن عليه [4] .

---

(١) عبد العزيز الشناوى : مرجع سابق (ص ١٩٦ ، ٢١٨ ، ٢٢٠) .
وكذلك : Hurewitz , j . c . : op . cit . , Doc . No . 49 , Convention (London) - 15 july - 17 September , Parliamentary Papers , 1841 , vol . 29 , p . 297 , op . cit .

(٢) Parliamentry Papers , 1841 , vol . 29 , p . 297 , op . cit .

(٣) ساطع المصرى : مرجع سابق (ص ١٧٥) .

(٤) عبد العزيز الشناوى : مرجع سابق (ص ٩٦) وكذلك : U . S . 46 th . con . spec . sess . (March 1881) , Senate , exec . Documents , vol . 3 , No . 3 , The Capitulations , by E . A . Van Dyck , p . 1 , pp . 106 - 108 in Hurewitz , j . c . : op . cit . , pp . 113 - 115 .

ومع تتابع ضغط روسيا لنيل امتيازات خاصة بعبور المضايق على حساب الدولة العثمانية ، وهو ما أدى إلى نشوب حرب القرم فى مطلع الخمسينيات من القرن التاسع عشر . ولقد تدخلت الدول الكبرى - سيما بريطانيا وفرنسا - ضد روسيا، ولصالح الدولة العثمانية ، حتى تم إجبار روسيا على حضور مؤتمر باريس .

وهكذا ، وفى ظروف مشابهة لظروف إصدار خطى شريف جلخانة ، وعشية مؤتمر باريس أصدر السلطان عبد المجيد الاول خطى همايون Hati Humayun وذلك فى ١٨ فبراير ١٨٥٦ ، والذى كان عبارة عن فرمان موجه إلى محمد أمين عالى باشا [١] الصدر الأعظم ، وأكد فيه السلطان ما ورد فى خطى شريف جلخانه، من توفير الحصانة لرعايا الدولة غير المسلمين ، مثل انتخاب رئيس دينى لكل ملة مدى الحياة ، وصرف مرتبات لرجال الدين غير المسلمين ، وكفالة حرية العبادة ، وإصلاح وترميم الكنائس وأماكن العبادة ، وإنشاء كنائس جديدة بشرط موافقة السلطان ، وإلحاق التلاميذ غير المسلمين فى مدارس الحكومة المدنية والعسكرية ، وإتاحة الفرصة لإنشاء مدارس للعلوم والفنون والصناعات ، شريطة رقابة السلطات التعليمية ، وحق امتلاك العقارات . وفى مقابل ذلك صار للدولة حق تجنيد المسيحيين ، مع جواز دفع البدل النقدى [٢] .

وأكد السلطان كذلك تمسكه بسياسة الإصلاح ، فألغى نظام الالتزام ، وأقر نظام الإدارة على الأسس الحديثة ذات المسئولية المحددة ، وفرض ضرائب مرتبطة بالدخل وأوضاع الملكية وفق النظم الاوروبية ، وأكد أيضا المساواة التامة بين المسلمين وغير المسلمين باعتبار الجميع « تبعية عثمانية » وأفراد دولة واحدة بحيث تستغنى الطوائف غير الإسلامية عن اللجوء إلى حماية الدول الأجنبية ، لا سيما روسيا ، التى كانت تستغل حمايتها للأرثوذكس للتدخل فى الشئون الداخلية للدولة العثمانية[٣] . وفى نفس الوقت أكد السلطان عبد المجيد الأول على تمسك الدولة بالشريعة الإسلامية باعتبار ذلك سببا من أسباب قوتها وعزتها [٤] .

---

(١) عبد العزيز الشناوى : مرجع سابق (ص ص ٩٦ - ٩٧) .

(٢) محمد أمين عالى باشا : شغل منصب وزير الخارجية لفترة طويلة ، قبل تولية منصب الصدر الأعظم ، ولعب دورا هاما فى العناية بمسلمى جنوب افريقيا .

(٣) عبد العزيز الشناوى : مرجع سابق (ص ص ٩٧ - ٩٨) .

(٤) توفيق على برو : مرجع سابق (ص ص ٦ ، ٧) .

وفى ٢٥ فبراير ١٨٥٦ افتتح مؤتمر باريس تحت رئاسة الكونت والفسكى Walweski الابن غير الشرعى لنابليون الاول ووزير خارجية نابليون الثالث ، والذى انتهى بعقد معاهدة باريس فى ٣٠ مارس ١٨٥٦ ، والتى وقعت عليها الدولة العثمانية وروسيا والدول الكبرى - بريطانيا وفرنسا والنمسا [٢] .

وقد نصت معاهدة باريس على منع السفن الحربية من عبور المضايق ، ومنع التدخل فى الشئون الداخلية للدولة العثمانية ، كما أن ثلاثا من أطرافها وهى بريطانيا وفرنسا والنمسا وقعت فى ١٥ ابريل ١٨٥٦ معاهدة لضمان استقلال الدولة العثمانية وسلامة ممتلكاتها ، وعدم التدخل مجتمعة أو منفردة بين السلطان ورعاياه، ولا فى الإدارة الداخلية للدولة ، كما أقرت بأن للسلطان أن يستعين بها إن جدت مشاكل ناجمة عن تدخل الدول واستخدامها القوة ضده ، وفى مقابل ذلك اتسقت السياسة العثمانية مع الوضع الدولى العام فى أوروبا ، وأحسنت معاملة الرعايا المسيحيين ، كما شجعت التجارة الأجنبية فى البلاد ، واستمرت بريطانيا فى انتهاج سياسة المحافظة على الدولة العثمانية ، باعتبارها دولة حاجزة تحول بين روسيا والمضايق ، وتمنعها من التسلل إلى المياه الدفيئة [٣] .

وتمثل الفترة منذ عام ١٨٥٦ وحتى عام ١٨٧٨ عصر الانفتاح العثمانى على العالم ، وفقا لروح معاهدة باريس من ناحية وروح خطى همايون من ناحية ثانية . وهذه الفترة هى التى شهدت أقصى امتداد عثمانى إلى الجنوب حيث تكثف الاهتمام بمسلمى جنوب افريقيا .

وقد شهدت هذه الفترة محاولة روسية لانتهاز الحرب السبعينية بين فرنسا وألمانيا لتدعيم النفوذ الروسى فى المضايق ، ورفضت بريطانيا التسليم لروسيا بمرادها . على نحو ما أكدته معاهدة لندن ١٨٧١ ، ولكن الأزمة تكررت بعد ذلك ، فدعا بسمارك إلى مؤتمر برلين ١٨٧٨ ، والذى أعاد تأكيد معاهدة باريس لسنة ١٨٥٦ فى مادتها الاولى ، وحق السلطان فى السماح بمرور السفن الحربية للدول الصديقة أوقات السلم فى مادتها الثانية ، وفتح البحر الأسود للتجارة لجميع الدول فى مادتها الثالثة .

---

(١) عبد العزيز الشناوى : مرجع سابق (ص ٦٩) .

(٢) نفس المرجع (ص ٩٧) .

(٣) عبد العزيز الشناوى : مرجع سابق (ص ٨٥٨) .

(٤) نفس المرجع (ص ٢٢٩ - ٢٣٢) .

ومثلما صدر خطى جلخانه فى غضون الأزمة المصرية العثمانية سنة (١٨٣٩) ، وخطى همايون فى غضون حرب القرم (١٨٥٦) ، فإن الدولة العثمانية أصدرت على عهد السلطان عبد العزيز القانون الأساسى العثمانى فى ممالك الدولة العثمانية متضمنا الروح آنفة الذكر ومترجما لها ، وذلك فى ٧ ذى الحجة ١٢٩٣ (الموافق لعام ١٨٧٦م) ، فنص على أن السلطنة العثمانية السنية هى : « بمنزلة الخلافة الإسلامية الكبرى »[(١)] ، وأن حضرة السلطان هو حامى الدين الإسلامى بحسب الخلافة » ، وحاكم جميع التبعة العثمانية وسلطانها[(٢)] ، كما أنه يجب ذكر اسمه فى خطب الجمعة[(٣)] .

وذكر القانون الأساسى بأن دين الدولة العثمانية هو الإسلام مع منح كافة الأديان حرية العبادة ، وشمولها برعاية الدولة وحمايتها[(٤)] ، وأن التعليم العثمانى لن يمس التعاليم الدينية للملل الأخرى[(٥)] ، كما شمل القانون حماية حق التقاضى والملكية الخاصة والتعليم ومساواة جميع العثمانيين أمام القانون ومنع المصادرة والتسخير والتعذيب وما إلى ذلك[(٦)] وأقام القانون المجلس العمومى للدولة، توطئة للشورى من خلال مجلس أعيان هيئة مبعوثين[(٧)] ، ونظم عمليات اختيار الأعضاء سواء بالتعيين أم بالانتخاب . كما أعاد تنظيم الشئون التنفيذية والمالية والقضائية ، بما يتناسب مع حالة التحديث المطلوب التوصل إليها ، مما مهد للدولة أمر التجانس والاتساق مع الدول الغربية الكبرى من ناحية ، واستغلال كل ذلك لمنع تدخل الدول فى الشئون العثمانية من ناحية أخرى .

وفى ظل ظروف إصدار هذا الدستور دعت ألمانيا إلى مؤتمر يعقد فى برلين فى عام ١٨٧٨ ، حيث جرى توقيع معاهدة برلين مؤكدة حق الدولة العثمانية فى التحكم فى نظام العبور والملاحة بالمضايق ، وكف يد روسيا عنها ، وتحديد قواتها

---

(١) انظر نص المادة الثالثة للقانون الأساسى الذى صدر فى ٧ ذى الحجة ١٢٩٣ هـ ١٨٧٦م . فى توفيق على برو : مرجع سابق (ص ٦٢١) . وساطع الحصرى : مرجع سابق (ص ص ١٥٥ - ١٧٣) .

(٢) نص المادة الرابعة فى توفيق برو : مرجع سابق (ص ٦٢١) .

(٣) المادة السابقة : فى نفس المرجع والصفحة .

(٤) المادة العاشرة (ص ٦٢٢) من نفس المرجع .

(٥) مادة ١٦ .

(٦) المواد ١٧ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٦ .

(٧) نفس المرجع (ص ٦٢٧) .

البحرية فى البحر الأسود ، وفتحه للملاحة أمام التجارة الدولية ، وهو ما سبق أن قررته معاهدة باريس فى عام ١٨٥٦ (١) .

وبهذا يمكن القول بأن الظروف الدولية بين عامى (١٨٥٦ و ١٨٧٨) ساعدت الدولة العثمانية على أن تلعب دورا إسلاميا نشيطا خارج حدود ولاياتها . ذلك أنها صارت أكثر اتساقا مع النظام الدولى والأوروبى ، وتأكدت زعامتها للعالم الإسلامى فى ظل طرحها السلطان العثمانى « حاميا للدين الإسلامى بحسب الخلافة ، ويجب ذكر اسمه فى خطب الجمعة » (٢) .

ومن الملاحظ أن هذا الارتباط الوثيق بين إقرار أوضاع ليبرالية داخل الدولة فيما يتعلق بقضيتى التجارة الدولية ومعاملة المسيحيين كان يتلوه مباشرة توقيع معاهدة توفر للدولة الحماية من الخارج ضد القوى التى تتهددها ، فى وقت تصر فيه بريطانيا على التمسك بسياسة المحافظة على تلك الدولة ، فقد ارتبط إصدار خطى همايون ١٨٥٦ بتوقيع معاهدة باريس بعد أيام قلائل ، بينما ارتبط إصدار الدستور العثمانى ١٨٧٦ بتوقيع معاهدة برلين ١٨٧٨ (٣) .

ومن ثم يمكن القول بأن اتجاه الدولة العثمانية للتحرك النشيط فى العالم الإسلامى كان مؤسسا على إجراءات عثمانية داخلية ، وأخرى دولية خارجية ، وأنه توافق مع تمسك الدولة بلقب « خليفة » نعتا للسلطان العثمانى إلى جوار لقبه الأغر الأول « حامى حمى الحرمين الشريفين » .

* * *

---

(١) عبد العزيز الشناوى : مرجع سابق (ص ص ٢٢٩ - ٢٣٣) ، وراجع نصوص المواد الأولى والثانية والثالثة ، المتعلقة بتأكيد مقررات معاهدة باريس وحق السلطان فى السماح بمرور السفن من المضايق ، وفتح البحر الأسود للملاحة .

(٢) راجع المادتين الرابعة والسابعة فيما سبق إيراده .

(٣) راجع ما سبق إيراده فى هذا الشأن .

الفصل الثانى

مسلمو جنوب أفريقيا تحت الحكم الأوروبى

لعل الترتيب المنطقى الآن ينقلنا إلى جنوب أفريقيا ، لنبحث هل كان مسلموها، وحكامها أيضا ، متأهبين لتلقى واستقبال دور عثمانى نشيط ، ويقتضى هذا مراجعة الخلفية التاريخية والإسلامية لمسلمى جنوب أفريقيا .

ومن المعروف أن جنوب أفريقيا خضعت للاستعمار الهولندى ولشركة الهند الشرقية الهولندية تحديدا فى عام (١٦٥٢) ، حين بدأت تأسيس محطة للشركة ومستشفى فى رأس الرجاء الصالح ، على أنه فى عام (١٦٥٧) بدأت عمليات استعمارية هولندية واسعة النطاق فى أندونيسيا والمالايو ، جوبهت بثورة إسلامية شاملة ، اضطرت منها السلطات الهولندية إلى نفى الزعماء إلى جنوب أفريقيا بأسرهم ، حيث عاشوا وتناسلوا ، ومنعوا من العودة إلى بلادهم ، وقد امتد الحكم الهولندى فى رأس الرجاء الصالح حتى احتلت بريطانيا المنطقة (١٧٩٥م ، لتخرج منها سنة (١٨٠٣) فى توقيت خروج الحملة الفرنسية من مصر بمقتضى صلح إميان[١] .

وخلال العصر الهولندى تعقد البنيان الاجتماعى لمستعمرة الكيب : ففى أعلى السلم كان البيض ، وفى الوسط كان الملونون وهم جنس خلاسى ناتج عن زيجات البيض مع النساء الهوتنتوتيات الإفريقيات ، والذين لم تعترف الكنيسة الهولندية بزواجهم ولا بنوتهم للبيض ، ثم المسلمون المنفيون من المالايو فى الوسط ، ثم الأفارقة الأحرار ، فالأفارقة الرقيق ، وكان الأفارقة الأحرار يحيون بقبائلهم المختلفة وتحت قيادة زعمائهم خارج حدود السيطرة الاستعمارية [٢] .

وقد شكل المسلمون طبقة مسالمة تمتهن الحرف والمهن الصناعية فى الكيب بالأساس . ومع أنهم كانوا جماعة مستنيرة ، ولم يكن هناك مجال مطلقاً لمقارنة وضعهم الحضارى بنظيره لدى الأفارقة ، حيث كانوا يسلكون سلوكا مثاليا ، ويقومون بالعمل بأمانة وإخلاص . ومع ذلك فقد كانوا عرضة للمعاملة السيئة والعنيفة والتجاهل المستمر لوجودهم . فلم يعترف القانون بزواجهم ، وبذا اعتبرت

---

(١) راجع تفصيلات ذلك فى بحث لنا بعنوان : « ترابط الأحداث التاريخية بين مصر وجنوب أفريقيا » فى د . إبراهيم نصر الدين (محرر) ، مصر وأفريقيا : مسيرة العلاقات فى عالم متغير (القاهرة : معهد البحوث والدراسات الإفريقية جامعة القاهرة ، ١٩٩٦) ص ص : ٧٠ - ١١٨ .

(٢) C . O . 48\44 , p . 186 .

هذا ويتضمن هذا الملف وثائق خاصة بالمسلمين ، وقد شكلت المادة الوثائقية للبحث . وعن هذه العناصر وتطور علاقاتها ، راجع للمؤلف كتابه نظم الحكم العنصرية فى جنوب أفريقيا (١٨٠٦ - ١٩١٠) ، سيما الفصلين الأول والثانى .

علاقات الزوجية لديهم مجرد فاحشة ، كما حرموا من امتلاك أية ملكية عقارية أو زراعية ، بل إن استمرارهم فى الحياة فى المستعمرة التى ولدوا فيها كان يتطلب الحصول على إذن من سلطات الامن يتم تجديده كل حين ، وقد وضعوا كذلك تحت إشراف مجلس شيوخ المواطنين البيض Burgher Senate (١) واللاندروست (٢) واقتضى ذلك حرمانهم من كافة حقوق المواطنة Burghership(٣) كذلك فقد أرغم مسلمو الملايو على العمل الإجبارى فى الخدمة العامة بدون مقابل ، بل وجرى عقابهم بالجلد والسجن ، ولم يكن بوسعهم مغادرة منازلهم بدون تصريح مرور ، كما جرى اقتحام منازلهم وتفتيشها بمعرفة الشرطة ، بدون إبداء أسباب ، كما كانوا عرضة للاعتقال بدون إذن قضائى ، وإضافة لكل هذا فرضت عليهم ضرائب قاسية تجاوزت تلك التى كانت تفرض على الاحرار من المواطنين البيض (٤) .

ومع كل هذا فقد « كان مسلمو الملايو يلبسون الملابس الأوروبية ، ويعملون فى كثير من القطاعات التجارية والمصانع والمكاتب والأعمال الفنية والمهنية ، وحافظوا على عقيدتهم ، وكانوا على درجة من التحضر والاعتزاز بالنفس » (٥) .

ومن الملاحظ أن وجود المسلمين فى الكيب قد أدى إلى تعقيد البناء الاجتماعى المعقد أصلا للمستعمرة ، وأضاف الكثير لمشكلة التعاطى اليومى بين عقائد عديدة وأجناس مختلفة ، تسود علاقاتها حالة من الصراع المستمر فى كافة مجالات الحياة وأصعدتها (٦) . ورتب هذا على زعماء المسلمين بذل جهد مضاعف للحفاظ على

---

(١) هو مجلس منتخب من المواطنين البيض الهولنديين ، وكانوا وحدهم المعتبرين « مواطنين » فى مدينة كيب تاون .

(٢) اللاندروست : هو حاكم إقليمى فى المستعمرة فى عهدها الهولندى ، وراجع رسالتنا للماجستير : «جمهورية جنوب أفريقيا ـ(١٨٥٧ - ١٩٠٢) » ، معهد البحوث الإفريقية - جامعة القاهرة ، (١٩٨٠) ص ص .

(٣) كلمة هولندية - افريكانية تعنى حقوق المواطنة .

(٤) The South African Commercial Advertiser , Dec . 27 , 1828 .

(٥) Golding , George and Joshua , Franklin : the Coloured Community - the South African way of life , london , 1953 , pp . 71 - 75 .

(٦) Rochlin , S . A . : Early Arabic printing at the cape of Good Hope , p . 48 .
ويشكل هذا المرجع بحثا فى دورية أجنبية وصلت للباحث ضمن المادة الوثائقية والمرجعية حول الموضوع، ولكن اسم الدورية لم يرد لذا لزم التنويه بغياب بياناتها ، وهى تقع فى سبعة عشرة صفحة .

هويتهم الإسلامية . ويبرز فى هذا المجال الشيخ يوسف الجاوى ، وهو رجل ولد فى بلدة بنتم بجاوة عام (١٦٢٦) ، وحج البيت الحرام فى عام (١٦٤٦) ثم عاد لبلاده وتزوج كريمة أحد الملوك - المدعو أكغ - ودعاه لحرب المستعمرين الهولنديين، فظل يقاتلهم حتى وقع فى أسرهم ، ونفى إلى سيلان . وفى عام (١٦٩٤) نفى إلى مستعمرة الكيب ، حيث أرسل إلى إقليم ستالنبوش Sellen-bousch ، وعاش فى قرية سندوفلى مع خمسين من أصحابه وقد مارس الشيخ يوسف ورفاقه عبادتهم ، ودعوا غير المسلمين من الأفارقة إلى الإسلام ، وكان ذلك بداية لوجود المسلمين خارج شبه جزيرة الكيب [١] .

وكان من أبرز الزعماء المنفيين من مسلمى الملايو الشيخ عبد الله قاضى عبد السلام ، والذى كان متهما بالتمرد ، وصدر ضده حكم بالنفى للكيب بضع سنوات . فلما انتهت مدة عقوبته ، ومنع من العودة إلى بلاده ، بدأ فى دعوة مسلمى الكيب للمحافظة على عقيدتهم الإسلامية وراح يعلمهم إياها . وكان الشيخ عبد الله يحفظ القرآن عن ظهر قلب ، وكتب بقلمه نسخة بخط اليد . وتعد هذه النسخة أقدم وأقيم الكنوز عند الجماعة الإسلامية فى الكيب . وقد مات الشيخ عبد الله عن عمر يناهز الخامسة والتسعين ، ولا يزال ضريحه مزارا للمسلمين ، سيما أيام الجمع . وقد روعى فى الضريح أن يخلو من أية نقوش التزاما بالسنة ، وكان عدد من تلاميذه من أبرز قيادات المجتمع المسلم فى جنوب أفريقيا ، وصار أحدهم شيخ الطرق الصوفية فيه [٢] .

ولما كانت جنوب أفريقيا بعيدة عن التيار العام للحضارة العربية الإسلامية فى هذا الوقت ، فقد صدرت فى القسطنطينية موسوعة إسلامية فى عام (١٧٢٧) لم تشر مطلقا إلى مسلمى الكيب . وبعد ذلك بنحو نصف قرن تواتينا إشارة فى

---

(١) الإمام الحاج عبد الرحمن قاسم جميل الدين - وكيل مفوض للإيمان بكيب تاون ، ورئيس مدرسة مسجد الأزهر بكيب تاون : كيف دخل الإسلام جنوب أفريقيا ، فى (مجلة الإسلام الأسبوعية ، العدد الثامن ، الجمعة ١٩ صفر ١٣٥٣ ، الموافقة ١ يونيو ١٩٣٤) ، وكذلك عمر الصديق عبد الله : أضواء على وضاع المسلمين واللغة العربية فى جنوب أفريقيا (فى بحوث المؤتمر العالمي السادس للندوة العالمية للشباب الإسلامى ١٢ - ١٧ جمادى الأولى ١٤٠٦) (ص ٥) ، والبحث معنى بأوضاع المسلمين فى السبعينيات والثمانينيات من القرن العشرين .

(٢) Zwemer : Across the world of Islam , pp . 24 - 250 .

وثائق أرشيف الكيب الهولندية Kaapse Archiefstukken Lopende Over

het jear , 1778 . ذات دلالة بالغة ، حيث تؤكد أنه تمت فى عام (١٧٧٨) طباعة العهدين القديم والجديد – فى هولندا باللغة العربية ، وتم إرسالهما إلى كيب تاون ، بغرض إرسالهما إلى الشرق – أى المالايو وأندونيسيا . ولا شك أن تلك الإشارة تؤكد أن مسلمى المالايو تعرضوا لضغوط تبشيرية كبيرة . ومع ذلك فإن هناك إشارات عديدة تؤكد أن نسخ المصحف كانت متوفرة لمسلمى الكيب فى ذات الفترة على نحو ما أورد مرزا أبو طالب خان الذى زار المنطقة وتحدث عنها فى كتابه : The travels of Mirza Abo taleb Khan in Asia , Africa & Europe during the years , 1799 - 1803 مؤكدا حرص المسلمين على عقيدتهم فى وسط جو معاد تماما [١] .

ويبدو أن مسلمى المالايو المنفيين تعرضوا لعمليات تبشير غير مجدية ، حيث سمى أحد زعمائهم باسم أوروبى هو جان فان باتافيا . لكن المسلمين درجوا على تسميته « الشيخ الشهيد المحبوب جان فان باتافيا ، مما يوحى بأنه تعرض للتعذيب الذى أفضى إلى الاستشهاد [٢] .

وفى عام (١٨٠٦) احتلت بريطانيا مستعمرة الكيب للمرة الثانية ، وذلك عندما أرسلت حملة بقيادة ليفتنانت جنرال سير ديفيد بيرد David bird والكمودور سيرهيوم بوفام Hume popham والتى نزلت فى خليج تيبل وتقدمت إلى مدينة كيب تاون عاصمة المستعمرة لتبقى فيها هذه المرة [٣] ، رغم أنف المستوطنين الهولنديين . وقد قدر لشخصية من مسلمى المالايو أن تلعب دورا حيويا فى مقاومة

---

(١) Rochlin, S. . : OP , Cit . , p . 50 .

وذلك مخالف لما ذهب إليه عمر الصديق عبد الله : مرجع سابق (ص ٥) من أن أول مسجد اسس (١٨٠٤) .

(٢) هذا الملف من ملفات وزارة المستعمرات وتضمن نحو مائة صفحة من الوثائق الخاصة بالمسلمين في الكيب وناتال والتى اعتمد البحث عليها بالأساس .

(٣) وهذا ما عرف بالاحتلال الثانى راجع : Walker, Eric A. : A History of south Africa , london , 1941 , pp . 138 - 143 .

عرف المستوطنون الهولنديون باسمين آخرين هما البوير ، أى الفلاحين الافريكانرز ، وبينما أن الاسم الأول يشير إليهم باعتبارهم الاقتصادى أو المهنى ، فإن الاسم الآخر يشير إليهم باعتبارهم السياسى والقومى ، حيث نظروا فيما بعد إلى أنفسهم باعتبارهم اوربيين الفارقة أبناء أرض الجنوب لا مستوطنين غرباء ، راجع رسالتنا للدكتوراه : مستعمرة الرأس البريطانية ، فصل يقظة القومية الافريكانرية ، معهد البحوث والدراسات الافريقية – جامعة القاهرة (١٩٨٣) .

الاحتلال البريطانى ، ثم صار لهذه الشخصية دور هام فى حياة بنى عقيدته فى ظل الحكم الاستعمارى البريطانى ؛ ذلكم هو المدعو الشيخ محمد [١] .

وكان الشيخ محمد من تلاميذ الشيخ الشهيد جان فان باتافيا ، وكان خليفة له فى التصوف ، وتشير الوثائق إلى أنه مات فى عام (١٨٨٦) عن عمر يناهز القرن وعامين ، وكان رجلا مخضرما عاش العهدين الهولندى والبريطانى ، وأمضى فى ظل الحكم البريطانى نصف قرن ، كما أنه وصل المستعمرة فى ظل الحكم الهولندى فى طفولته ، وشاهد إجراءات القمع ضد المسلمين . ومع كل ذلك فقد قدم نموذجا للإنسان النقى المخلص المفيد لمجتمعه ، وكان محبوبا من / أبناء جلدته، بسبب طول عمره وحسن سيرته ، ومن الحكام بسبب حكمته وإنسانيته وفائدته للمجتمع . وقد نشرت صحف المستعمرة نبأوفاته فى الصفحة الأولى تحت عنوان : « وفاة معمر مالايوى » ، وقالت إن موت مواطن صالح مهما كانت عقيدته أمر يدعو للصدمة ، وحدث ملفت ، وبخاصة إذا كانت حياته ملأى بالإشارات المفيدة للمجتمع ، وذات المغزى الواضح على الصعيد الإنسانى ، وقد كرس الشيخ محمد حياته وجهده لقضية الدين الإسلامى وكان رمزا لصمود بنى عقيدته وقدوة صالحة لهم . وتعد حياته مضرب الأمثال فى هذا الصدد ، سيما وقد كانت حياة حافلة ، ودالة على قوة شخصيته ، ووفائه . فقد كان الهولنديون قد جندوا أبناء المالايو فى عام (١٨٠٤) فى قوات ميليشيا تحسبا للغزو الأجنبى ، وصار الشيخ محمد جنديا فى قوة مدفعية أسسها ضابط فرنسى كفء يدعى مادلينيه Madlener . وعندما بدأت الحملة البريطانية فى احتلال الكيب فى عام (١٨٠٦) أبدت قوة المدفعية المالايوية حماسا واستبسالا منقطع النظير ، فى معركة قرب بلوبيرج Blueberg ، حتى نالت استحسان ورضا القائد الهولندى ، بل إن الضباط البريطانيين أثنوا على أدائهم ، سيما الكابتن سمارت Smart قائد الفرقة الثانية والسبعين للمناطق العالية The 72 nd Highlanders وقد دفن شهداؤهم باحترام كبير ، وعولج جرحاهم- ومنهم الشيخ محمد - بعناية فائقة ، وصار لهذا مضرب الأمثال فى الشجاعة والجلد [٢] .

وعندما صارت الكيب مستعمرة بريطانية امتثل للحكم الجديد ، وصار مثالا

---

(١) لم توفر لنا الوثائق اسمه كاملا ، كما لم يرد ذكره فى أي من مصادر ومراجع تاريخ جنوب أفريقيا .

(٢) C . O . 48/444 , p . 195 .

للانضباط والولاء ، كما كان في نفس الوقت مثالا للالتزام بعقيدة الإسلام . وقد ظل طوال حياته ينهج سلوكا متعاونا وحصيفا ، وكان نموذجا طيبا وقدوة صالحة لكل الأجناس فى المستعمرة ، كما كان مستنيراً ومتفتحا وذا رأي صائب ، حتى كان أثرياء البيض يجالسونه ويستشيرونه ، وقد خاض الشيخ محمد فى مطلع العهد البريطانى معركة حضارية لإثبات جدارة وأهلية مسلمى المالايو برعاية الحكومة لهم، وتوفير الخدمات العامة لأحيائهم لا سيما التعليم والصحة . وقد نجح الشيخ محمد فى إقناع النائب العام مستر بورتر بأن الإسلام عقيدة سماوية صادقة ، حتى أن الرجل وقف فى الجمعية التشريعية لمستعمرة الكيب البريطانية يطالب بتوفير منح مالية للتعليم الدينى الإسلامى Ecclesiastical grants . وراح بورتر يقتبس من القرآن آيات يدلل بها على أن تعليمها للنشء وبثها فى عقول الأطفال سيكون دافعا لهم على طلب العلم والالتزام بالخلق الكريم . ثم استشهد بشخصية الشيخ محمد باعتبار أنه على الرغم من مخالفته لعقائد غالبية سكان المستعمرة من المسيحيين ، نظرا لكونه مسلما ومؤمنا بالقرآن والنبى « عليه الصلاة والسلام » فإن لشخصيته جاذبيتها وبريقها واحترامها ، مما جعله يرقى لقوة شخصية وجلال علية القوم من حكام المستعمرة من البريطانيين والهولنديين الذين يتحصنون - على عكسه- ببريق السلطة والمال الوفير والجاه والثراء العريض . وقال بورتر آخر الأمر إن غالبية المستوطنين لا تعلم بأن فى القرآن خيرا ، وإن عليهم أن يراجعوا معلوماتهم . ولقد جعلت هذه الاقتباسات التى استعان بها بورتر ، جعلت المستعمرة كلها تموج بحركة نشيطة لتفهم الإسلام ، وملاحظة سلوكيات المسلمين ، وتقديم ما يحتاجونه من دعم لتعليم أبنائهم [(١)] . وذكر أكثر من شخص بأن المسلمين أناس يختلفون عن البدائيين من الأفارقة غير المسلمين ، وهم ملتزمون بالقانون سواء فيما بينهم أم تجاه الدولة [(٢)] .

وحتى العشرينيات من القرن التاسع عشر كان جهد التعليم الإسلامى يقع على عاتق الآباء ومن خلال الكتاتيب ، ومن خلال طقوس ابتدعها مسلمو المالايو حتى يحفظوا هويتهم ، وقد توفر لهم نتيجة لهذا الجهد عدد كبير من المخطوطات العربية التى يحتفظون بها فى منازلهم ، يتوارثونها جيلا بعد جيل [(٣)] .

---

(١) Ibid . , p . 196 .

(٢) Rochlin , S . A . : Op . Cit . , p . 52 .

(٣) Theal , George Mccall : History of South Africa , 1795 - 1872 , Vol . III , London , 1927 , p . 44 - 7 .

وفى عام (١٨٢٠) زار عدد من الأثرياء العرب من جزيرة يوحنا فى قناة موزمبيق Johanna , Mozambique Chnnel مستعمرة الكيب ، حيث يبدو أن حكومة المستعمرة كانت تتفاوض معهم فى بعض الشئون التجارية ، إلا أن لقاءهم كان حارا بالمسلمين فى كيب تاون ، حيث نقل البحارة وعمال الميناء منهم الخبر إلى زعمائهم وعلمائهم ، فتوالى وصول عرب فى سفن متوسطة - على فترات متباعدة مع ذلك - حاملة الكتب الدينية والمصاحف ، بل واستقر بعض العلماء بين ظهرانيهم لفترات محدودة (١) .

وقد أدى هذا الوضع إلى دفع عدد من المبشرين الأوربيين - البريطانيين أساسا - للعمل على تنصير المسلمين . ومع المقاومة المسلمة الحاسمة لهذا الإجراء راحت الحكومة البريطانية تبحث قضية مسلمى الكيب برمتها ، وتصادف أنها فى ذات الوقت كانت تبحث قضية المساواة بين الأجناس ، توطئة لتحرير الرقيق فى كافة أنحاء الامبراطورية البريطانية ، وذلك بين عام (١٨٣٣) وعام (١٨٣٨) (٢) ومن ثم بدأت العقيدة الإسلامية تحظى بتسامح ملحوظ من قبل حكومة مستعمرة الكيب ، حتى صار تأديتها علانية أمرا لا يجابه بأية معارضة . حتى إذا كان يوم ٣ يوليو ١٨٢٨ صدر القانون رقم خمسين 50 th Ordinance والذى نص على مساواة جميع الناس أمام القانون بغض النظر عن اللون والجنس (٣) . وساعد هذا المسلمين على الانطلاق بأقصى طاقة للعمل لأنفسهم ومجتمعهم ، وصاروا يستمتعون بوضعهم الجديد كمواطنين فى الكيب ، وبدأت أعدادهم تزيد ، ومعنوياتهم ترتفع . وأكدت تقارير الحكومة أن « طبقة المسلمين جميعها تعتبر إضافة قيمة ، سيما بعد القانون رقم خمسين ، للسكان المفيدين والإيجابيين فى المستعمرة (٤) . وأكدت الصحف أن منهم شخصيات رصينة محترمة هادئة ودودة ، وأن لهم مبادرة لتقديم المساعدات سيما فى حالات الحرائق والأزمات التى تتطلب جرأة وشجاعة(٥) .

ومع ذلك فإن هذه التغيرات الإيجابية فى صالح مسلمى الكيب لم تكن مقبولة

---

(١) Rochlin , S . A : Op . Cit . , p . 50

(٢) Ibid., p. 53.

(٣) The South African Commercial Advertiser , Dec . 27 , 1828 The Cape Mlays and the 50 th ordinance of july 3 , 1828 .

(٤) Rochlin , S . A .: Op . Cit . , p . 53.

(٥) The South African Advertiser , Dec . 27 , Op - Cit .

لدى بعض فئات البيض فى المستعمرة . ومن ثم فقد انتهز هؤلاء فرصة نشر كتاب إسلامى لشن حملة عليهم . فأما الكتاب فهو عبارة عن ترجمة لأدعية ووعظ وإرشاد دينى مقتبس من كتابات عربية وفارسية وهندية إلى اللغتين الإنجليزية والهولندية . وحمل الكتاب اسم : Hidayut - Oal - Islam – وكان مؤلفاه هما زستم زابول وسوهارا Zoostum Zabolee & Sohara وقد قام بطباعته المدعو روبرتسون W . T / Robertson خلال زيارته لكيب تاون فى عام (١٨٣٠) ، بعد أن أبدى مسلمو الكيب رغبتهم فى ذلك ، فقام الرجل بطباعته فى مطبعته بالبنغال بالهند ، ووعد بطبعه طبعة ثانية باللغة العربية . وقد عبزت جريدة رأس الرجاء الصالح الادبية عن حالة الصدمة لوصول هذا الكتاب البسيط من الهند إلى جنوب أفريقيا وتبرمها من تلقف المسلمين له بلهفة بالغة . قالت :

« إن قوما يعانون من هذا الوضع المتدنى ، ومن الحرمان من التعليم ، والجهل، والتفسخ الاجتماعى ، مع عناد شديد للتمسك بمعتقداتهم ، ومع عدم ميلنا لتشجيع تماسكهم الاجتماعى ، واحتفاظهم بروابط القربى ، وتمسكهم بالعقيدة العربية القائمة على الشعوذة !! ، فإننا لسنا سعداء أن تتوفر أية وسيلة لنقل هذه العقيدة إلى أتباعها فى هذه البقعة من العالم » (١) .

ويؤكد النص السابق أولا – مدى الحرمان الذى عانى منه مسلمو الكيب فى كافة المجالات ، وأنه قد نظر إلى عقيدتهم – ثانيا – نظرة دونية غير عادلة ولا منصفة ولا موضوعية ، وأنهم ثالثا – قد فرضت عليهم قيود شديدة لمنع إمداد ينابيع الإيمان لديهم بمدد متجدد ، وأنهم رابعا – توسلوا فى ذلك بشخص انجليزى متفتح، عاش فى الهند ، وعايش مسلميها وفهمهم ، وأنه رغم انتمائه للاستعمار البريطانى ، لم يتأثر بالجو العنصرى الذى يفوح من علاقات الأجناس فى جنوب أفريقيا .

وكان البيض يخشون قيام الملايويين بثورة ضدهم ، بحكم أنهم كانوا يعاملون « كجنس » أدنى ، وبحكم أنهم كانوا محرومين فى البدء من ممارسة شعائر دينهم علانية ، ثم بحكم أنهم أبناء ثوار ، جرى نفيهم إلى جنوب أفريقيا ، ثم بحكم

(١) The Cape of Good Hope Literary Gazette , , Cape Town , 1830 , vol . I, No . 2 , p . 18 .

أنهم يشكلون قرابة نصف سكان العاصمة كيب تاون ولكن الأيام أثبتت عكس ذلك ، فقد تعاقبت أزمات عديدة بين الحكم البريطاني والقبائل الإفريقية ، سيما الهوتنتوت والاكسوزا ، وتم خلال ذلك نقل قسم كبير من الحامية العسكرية البريطانية إلى ميادين القتال بعيدا عن كيب تاون . ولم يحدث أن أقبل المسلمون على انتهاز الفرصة للثورة ، أو ترويع الآمنين ، أو الإقبال على المذابح العامة وجماعات الدم . ومع هذا فهم لم يكونوا يستكينون للذل ، بل درجوا على عرض مطالبهم بأدب جم وإصرار صبور ، وعلى الرغم من العنف الذى كان يجابههم به البيض ، والذى جعل الصبر المقرون بالحزن ، من ناحية ، وبالإصرار والتحدى من ناحية أخرى ، مكونا أساسيا من المكونات النفسية لشخصيتهم [1] .

ولقد جاء تناقلهم لسيرة زعمائهم فى الكيب ليعطي لهم هوية تاريخية حرصوا عليها وتمسكوا بأهدابها . ولقد أثمرت خبرتهم التاريخية فى إثراء هذه الهوية جيلا بعد جيل ، وكانت معينا لهم على المقاومة ، كما كانت نبعا لا ينضب من الخبرات فى مواجهة المواقف المختلفة . ولقد أثبت سلوكهم عبر هذه المواقف إصرارهم على التمسك بالإسلام كعقيدة يدينون بها ، ويتمحور حولها انتماؤهم من ناحية ، وإصرارهم على منع أى تعد على حريتهم وحقهم فى العمل الحر من ناحية أخرى ، وإصرارهم على المطالبة باعتبارهم مواطنين أكفاء لغيرهم فى المستعمرة . وفى سبيل ذلك لم يلجأوا إلى الثورة ، بل لجأوا إلى أسلوب إثبات مدى فائدتهم للمستعمرة [2] .

وطوال عقود الثلاثينيات والأربعينيات والخمسينيات حدثت حروب بين الحامية البريطانية ومملكة الاكسوزا شرق مستعمرة الكيب واضطربت الأمور ، وعقد المجلس التشريعى جلسات لإعلان حالة الطوارىء وفى كل مرة كان مسلمو المالايو يتطوعون للدفاع عنها ، وتقديرا لتلك المساهمة فى الدفاع عن المستعمرة أصدر قائد قوات المستعمرة أمرا عاما مؤرخا بمعسكر القيادة الرئيسى قرب خليج واترلو بالمناطق الإفريقية المحتلة فى ١٦ سبتمبر ١٨٤٦ موقعا من جنرال كلوت يشكر فيه مسلمى المالايو - عند انهاء العمليات العسكرية وقرب عودتهم لمنازلهم - على جهدهم فى

(١) C . O . 48/444 , p . 187 , Malays at the cape colony

(٢) Ibid ., p . 188 . I .

الدفاع عن البلاد ضد « أعدائنا الكفار » الذين اقتحموا المستعمرة مشكلين خطرا حربيا جسيما . وقد أبدى مسلمو الملايو شجاعة فائقة ، حظيت باحترام القوات العسكرية ، خلال عدة معارك ، دفاعا عن « بلادهم » ، التى كانوا مخلصين لها وقت الحاجة ، فاضطلعوا بالأعباء التى ينبغى أن ينهض بها كل مواطن » . وساعد هذا على زيادة امتيازاتهم [١] .

ولقد تحملت جماعات المبشرين المسيحيين مسئولية التضييق على مسلمى الكيب، وذلك لأنها غضبت وثارت بسبب انتشار العقيدة الإسلامية بين السود الوثنيين ، ويؤكد المؤرخ الانجليزى الجنوب افريقى الكبير جورج مكال ثيل ذلك فى إشارة سريعة عجلى [٢] .

ويذكر روتشلين عن مؤلف كتاب : The state of the cape of Good Hope[١] ، والصادر فى لندن عام ١٨٣٢ أن عدد مسلمى المالايو يقدر بنحو ثلاثة آلاف نسمة ، وأنهم يمارسون العبادة فى مساجد بنيت لهذا الغرض من الحجارة خارج المدينة ، ووصف إمامهم بأنه رجل حصيف ومثقف وحسن الدراسة والعلم ، « ويلم تماما باللغتين العربية والعبرية ، ويحفظ القرآن ، ويرتله فى الصلوات بطريقة مؤثرة ، وعلمت بمزيد الخزى والأسف أن الديانة المحمدية تحقق تقدما عظيما بين أدنى الطبقات الاجتماعية فى الكيب - حيث الأفارقة - ولكن حيث يكون هناك حماس عظيم سيكون هناك تأثير عظيم » [٣] .

ويحتاج هذا النص للمؤلف المجهول ، الذى أشار روتشلين لكتابه ولم يشر إليه، إلى وقفه . فمساجد المسلمين خارج المدينة ، ويصفها المؤلف بأنها صالات وغرف « لا مساجد أو جوامع مما يؤكد مدى التضييق عليهم ، كذلك فالرجل يحفظ القرآن ويرتله بشكل مؤثر ، ويحظى بنجاح فى نشر الإسلام بين الأفارقة

---

(١) Ibid . , p . 189 .

(٢) Theal , George Mccall : Records of the Cape Colony . vol . XXVIII (28) , pp . 36 - 8 and vol . xxxv (30) , p . 138 - 9 .

وهذا عمل وثائقى ضخم ، وحصلنا منه على وثائق محدودة خاصة بالمسلمين فقط . وكان ثيل أول مدير لمكتبة كيب تاون ومشرفا على مكتبة جامعتها اعتبارا من ١٨٧٢ وحتى السنوات الأولى من القرن العشرين .

(٣) Rochlin , S . A . : op . cit . , p . 52 .

الذين يعانون أشد معاناة عنصرية فى ظل حكم البيض ، ووجدوا ضالتهم فى الإسلام ، لكن الغريب فى الرواية هو كون الإمام ملما بالعبرية ، ومع أنه كان مثقفا وملما بالعربية فذلك له ما يبرره من كونه مسلما ، وربما تعلم العربية بحكم إسلامه ووظيفته كإمام ، لكن إلمامه بالعبرية يؤكد أنه وظف ثقافته وعلمه فى تعلمها كى يستخدمها فى الرد على المبشرين الذى بدأوا يشددون النكير على المسلمين بغية تحويلهم عن دينهم ، ولعل عبارة المؤلف « ولكن حيث يكون هناك حماس عظيم سيكون هناك تأثير عظيم » تعطى انطباعا بحالة الاستنفار لدى المثقفين والمبشرين الأوربيين الذين كانوا يأملون أن يؤدى تحول الأفارقة إلى الإسلام إلى غضبة الحكومة واتخاذ إجراءات مضادة لهم .

ولعل ما سبق يتأكد إذا علمنا بأن المبشر المستشرق الدكتور جون ارنولد John M . Arnold الذى كان ينتمى إلى كنيسة انجلترا وعاش فى الكيب قد كرس أغلب جهده للتبشير بين المسلمين وكتب كتابا عن صلة الإسلام - الذى أسماه الإسماعيلية - بالديانة المسيحية تحت عنوان Ishmael - or a Natural History of Islamism and its Relations to Christianity , London , 1859 .

وحاول فيه تأكيد هذه الصلة فى محاولة منه لجذب المسلمين إلى المسيحية ، لكن المسلمين لم يقبلوا الاستجابة له طوال المدة التى قضاها بينهم (١) .

ولعل أثمن ما فى الوثائق البريطانية تلك الصورة الرائعة البنية التى تقدمها للأحوال الاجتماعية لمسلمى الكيب ، وكيف يحافظون على هويتهم الإسلامية ويقاومون الضغوط آنفة الذكر ، وقد توافقت تلك الصورة مع صورة تقرير صدر فى كتاب أعده المدعو ماكسميليان كوليش : Maximilien Kollisch :

The Mussulman Population at the Cape of Good Hope , Constantinople , Levant Herald Office , 1867 .

وقد ورد النص الكامل للكتاب متضمنا شروحا وتعقيبات للمسئولين البريطانيين، ومن ثم ستزدوج إشارتنا له وللوثائق معا (٢) .

---

(١) Rochlin , S . A . : Op .Cit . , p . 54 .

(٢) انظر النص الكامل للكتاب التقرير ، ويقع فى اثنين وأربعين صفحة مع الشروح والتعقيبات ونصوص الوثائق البريطانية بهامشه فى الملف C . O . 48/444 .

فيذكر الكتاب والوثائق معا بأن أبناء المالايو مسلمون متمسكون بالشريعة المحمدية في مناحيها الاجتماعية بصفة خاصة ، لا سيما في مجال زى المرأة ، وعدم اقحامها في أعمال تختلط من خلالها بالرجال . كذلك يمتنع مسلمو المالايو في الكيب عن شرب الخمور ، ويصومون رمضان ، ويتميزون بالأدب الجم والاحترام ، والهدوء والتصرف المتحضر ، على نحو ما هو غير معروف عن الاجناس الهندية (١) .

وقد امتاز مسلمو المالايو بقامة متوسطة ، وبنيان قوى ، ودقة عظام اليد والقدمين، وبالشعر الاسود الطويل الناعم اللامع ، وتمتاز نساؤهم بروعة تسريحاتهن وتفننهم فيها . ويشيع بين مسلمى المالايو استخدام زيوت محلية من البيئة ، مثل زيت بذور الكاكاو ، والذى يكسب شعورهن لمعانا قويا ، فيضفى جمالا على وجوههن التى تميل للصفرة (٢) .

كما اعتادت نساؤهم استخدام الدبابيس والخواتم الذهبية والنحاسية والمعدنية عموما . ويهتم مسلموا المالايو بنظافتهم العامة ، ويضفى بياض أسنانهم عليهم وعلى النساء بصفة خاصة جمالا ملحوظا . ولهم شغف بفنون الغناء والموشحات وبصناعة أشكال من الحلوى متعددة ، أما ملابس نسائهم فربما تحظى بإعجاب عديد من الموديلات الأوربية ، ولا شيء يبهر عقول الأفارقة والأوروبيين أكثر من منظر سيدات المالايو - وقد خرجن أيام الاجازة أو تأدية فروض الصلاة - سيما الجمعة- في لباس أبيض نظيف رائع البهاء ، وبصفة عامة يمكن القول بأن أحياءهم في كيب تاون ، لا تحتاج إلى أى جهد حكومى في هذا الصدد ، مع العلم بأن هذا الجهد محدود أو غير موجود في حقيقة الأمر .

ومثل هذا يقال عن الرجال ، بطرابيشهم الحمراء ، والصديرى فوق القميص

---

(١) Ibid . , p . 187 , and Kollisch , Mximilien : Op . Cit . , p . 21 .
وكان مكسميليان يشغل منصب مدير تحرير الدورية الدولية التى تصدر في القسطنطينية :
Directeur du journal international les Deux Mondes (Contantinople) .
ويذكر ماكسميليان بأنه وضع الكتاب استجابة لاهتمام السلطان العثمانى بمسلمى الكيب ، باعتبارهم شركاء في العقيدة الإسلامية يحيون في صقع بعيد من العالم ، وأنه كلف بجمع المعلومات عنهم ولفت انتباه العالم الإسلامى بقيادة الباب العالى لهم . راجع : Ibid . , p . 4 .

(٢) C . O . 48/444 , p . 188 , and Kollisck , Maximilien : Op . Cit . , p . 22 .

الحريرى ، والذى يعطيهم مظهر متميزا فى المدينة كلها ، ويمتازون بالنظافة والعناية بأنفسهم ، بحيث لا تجد العين غضاضة فى مظهرهم والنظر إليهم ، اللهم إلا عدم عنايتهم بأحذيتهم ، فأحيانا كثيرة يلبسون قبقابا يعرف باسم kaparrans ، ربما لسهولة لبسه وخلعه عند الذهاب للمساجد وتلبس النساء فى الزفاف حذاءً أبيض اللون [1] .

ويمتاز مسلمو الملايو فى غالبيتهم العظمى بالحماس الدينى والمواظبة على تأدية الفروض ، والمسارعة إلى القول بأنهم مسلمون عندما يوضعون فى موقف مخالف لعقائدهم ، اعتذارا عن عدم المشاركة فى أى مناسبة اجتماعية يمارس فيها شرب الخمور أو غيره . كما يحرصون على الاحتفال بمناسباتهم الدينية ، وتشير جريدة كيب تاون Cape Town paper إلى مظاهر الاحتفال بعيد الأضحى Bairam لعام ١٨٥٧ الموافق لعام ١٢٧٤ هـ ، فتذكر كيف يستطلعون الهلال ، وكيف ينطلقون إلى المساجد مرتلين القرآن والأناشيد الدينية « كالعربية » ويهتفون : « الله ... الله » بشكل اعتبره الأوروبيون نوعا من « الوثنية والبربرية » . وتشير الصحيفة إلى المسلمين باعتبارهم « أتباع إسماعيل » [2] والواقع أن إشارة الصحيفة لهتاف المسلمين بلفظ الجلالة كان أمرا غير مفهوم بالنسبة لهم ، وتدل نسبتهم إلى الوثنية على عظم أزمة المسلمين فى ظل الاستعمار الأوروبى للكيب وعلى عدم فهمهم للإسلام دين الوحدانية ، التى كانت رسالته الأولى للبشرية ، والتى يعد الإسلام أنقى وأرقى وأبقى صورها . أما وصف المسلمين بالبربرية ، فهو ما يدل على العنصرية المطلقة ، حيث وصفهم غير واحد من المسئولين السياسيين والعسكريين بالأمانة والهدوء وعدم ترويع الآمنين ، رغم ما يتعرضون له من مظالم البيض وجورهم . وقد وصف مسلمو الملايو بأنهم لا يمارسون « الإسلام الثورى » القائم على الجهاد ضد المستعمرين ، ولا ينتهزون الحروب مع القبائل الإفريقية للثورة ضد البيض ، نظرا لاعتبار زعمائهم باستحالة تحقيق نصر ، واعتبارهم الثورة– مثلها مثل الاستجابة للمبشرين – فتنة تؤدى للخراب [3] .

---

(١) Ibid . , p . 22 .

(٢) مقتطف من الجريدة المذكورة فى : C . O . 48/444 , p . 188 .

وكذلك : Kollisch , Maximilien : op . cit . , p . 24 .

(٣) C . O . Ibid . , p . 188 and Kollisch : OP . Cit . , 24 .

أما وصف مسلمي الملايو بأتباع اسماعيل » فليست تلك إشارة إلى الطائفة الاسماعيلية المعروفة ، بل هي إشارة إلى أتباع النبي محمد ﷺ باعتباره من سلالة سيدنا إسماعيل على نحو ما أورده الدكتور جون أرنولد (١) .

كذلك لم يفهم البيض قيام المسلمين بصلاة العيد في الساحات مبكرا ، وذبحهم الأضاحي ، وهتافهم في الشوارع : « الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر . لا إله إلا الله . الله أكبر . الله أكبر . ولله الحمد » . كما أزعج الأوروبيين مواكب المتصوفة حاملين أعلامهم يطوفون بشوارع المدينة (٢) . على أن أبرز ما يدل على عدم فهم الأوروبيين - الذي جسدته الصحيفة آنفة الذكر فيما اقتطفته الوثائق - هو تفسيرها للشهادتين « لا إله إلا الله - محمد رسول الله » بأنها تعني أن المسيح هو إشراق عظمة الرب والمتجسد في قوته : Christ is the brightness of his glory and he express image in his power .(٣) .

وبطبيعة الحال فإن لا إله إلا الله لا علاقة لها بهذه المعاني مطلقا ، ولكن يبدو أن هذا هو ما فهمه الأوروبيون من لغة لا يعرفونها هي اللغة العربية .

وقد حافظ أبناء الملايو عبر ما يزيد على قرنين - حتى فترة الدراسة - على لغتهم الخاصة ، واستمروا يتوارثونها جيلا بعد جيل ، وكان ذلك من مؤشرات تماسكهم الاجتماعي والثقافي ، ورفضهم القبول بسحق هويتهم وعقيدتهم وثقافتهم ولغتهم . وقد قاوموا هيمنة اللغة الهولندية لقرابة قرن ونصف ، وقاوموا هيمنة اللغة الانجليزية قرابة نصف قرن - حتى فترة الدراسة . وقد تطلب المحافظة على اللغة الملايوية جهدا شاقا وإصرارا وعنادا كبيرين ، نظرا لانقطاع الاتصال بالوطن لفترات طويلة (٤) .

وعلى صعيد الزواج حافظ المسلمون على مراسم وعادات خاصة بهم ، حفاظا على هويتهم ، وكانت لهم تقاليد مرعية ، لا سيما بين أولئك الميسوري الحال منهم ، الذين يملكون القدرة على دعوة أصدقائهم إلى الاحتفال معهم . وفي اليوم

---

(١) راجع ما ورد سابقاً في هذا الشأن .

(٢) سوف نعرض لذلك فيما بعد في الفصل الثالث .

(٣) C . O . OP . Cit . , p . 189 and Kollisch : OP . Cit . , p . 24 .

(٤) C . O . 48/444 , p . 194 and Kollisch : Op . Cit . , p . 35 .

المحدد يجتمع هؤلاء الأصدقاء فى أبهى حللهم . وتلبس النساء بصفة خاصة أثوابا حريرية غالية الثمن ، جميلة المنظر والذوق ، حتى لتغدو إحداهن « موديلا » لأية امرأة أوروبية [١] وفى الحفل تقدم المأكولات من كافة الأصناف وبكافة الأوصاف ، وكانوا يدعون عددا من المسيحيين المرموقين فى المجتمع الكيبى لحضور الولائم ، وسط جو مرح ، تغنى فيه الأغنى ، وبخاصة أغانى النساء ذوات الأصوات الجميلة، لوقت متأخر من الليل .

وتبدأ عملية الزواج بمفاتحة والد العريس لوالد العروس فى طلب يدها لابنه ، ثم عادة ما يأخذ والد العروس بعض الوقت فى التفكير والسؤال عن الشاب ، ثم يأذن له – إن وافق – بزيارة المنزل ، وعادة ما يكون هذا بعد مضى أربعين يوما . ثم يجرى الاتفاق على المهر وترتيبات الزواج ، حسب ظروف الطرفين ثم يتم تحديد موعد الزواج ، ويحضر العريس شاهدين ، والشيخ الذى يقوم بعقد القرآن، ويقدم العريس هدية (شبكة) تتراوح قيمتها بين خمسة شلنات واثنى عشرة جنيها استرلينيا [٢] .

وعادة ما تكون احتفالات الزواج أيام الجمعة إما قبل أو بعد تأدية فريضة الصلاة، ويخرج الزوجان السعيدان بصحبة أقاربهما إلى المناطق الريفية أو الساحلية فى عربات مغطاة ، حيث يحتفلون بالمناسبة السعيدة .

ويتردد مسلمو المالايو فى الزواج من الأوربيات ، فإذا ما حدث هذا يلاحظ أن الزوجة غالبا ما تكون انجليزية ، وبالتأكيد تكون قد اعتنقت العقيدة الإسلامية [٣] .

وفى حالة الطلاق كان يجرى تنفيذ قواعد الشرع من عدم تزوج المرأة مجدداً قبل مضى مدة ثلاثة أشهر وعشرة أيام « هى مدة العدة الشرعية » [٤] .

وكان مسلمو المالايو يعددون الزوجات [٥] . وكان هذا يحظى بعدم رضا أو فهم الأوروبيين ، وقد جرى سجال بشأن التعدد بينهم وبين مسئولى المستعمرة [٦] .

---

(١) C . O . OP . Cit . , 189 and Kollisch : OP . Cit . , pp . 24 - 5 .

(٢) C . O . OP . Cit . , p . 189 and Kollisch : OP . Cit . , p . 25 .

(٣) C . O . 48/444 , p . 10 and Kollisch : Op . Cit , p . 26 .

(٤) C. O . OP . Cit . , p . 109 and Kollisch : OP . Cit . , p . 26 .

(٥) C. O . OP . Cit . , p . 189 and Kollisch : OP . Cit . , p . 24 .

(٦) سنعرض لهذا بشيء من التفصيل عند الحديث عن الدور العثماني تجاه مسلمي الكيب .

أما المراسم الجنائزية لمسلمى المالايو فتستحق الملاحظة أيضا . فمقابر المالايويين فى الكيب تستحق أن تزار ، وهى بالنسبة للغرباء تشكل ملامح مثيرة لمجتمعهم . فعندما تكون هناك مناسبات تضاء الأنوار فيها ، حيث يجتمعون للدعاء للموتى بلغتهم المحلية ، وهم يحافظون على مقابرهم فى حالة جيدة ، ويقدمون - خلال الزيارة . أعطيات للفقراء ، كما يحملون الزهور إلى المقابر ، ويكثرون من وضع العطور ، وتتميز مسيراتهم الجنائزية بقدر كبير من الصمت والاحترام ولاتشارك النساء فيها ، بل تقتصر المشاركة على رجال من أقارب وأصدقاء الموتى ، ويقوم بالصلاة وطقوس الجنازة « حانوتى » ، وهو فى زيه الكامل مصحوبا بمجموعة من معاونيه ، وهو يتقاضى لقاء ذلك « المربوط » ويبدو أنه مبلغ من المال يتفق عليه بينه وبين أهل الميت ، وتمتاز جنائز المرموقين من مسلمى المالايو بكثرة أعداد المشيعين ، ويحرصون على حضورها بشكل ملفت للنظر ، حتى أن مستخدميهم من المسيحيين يأذنون لهم بالانصراف فور العلم بوفاة صديق أو قريب لهم . ويغلب على طقوس الجنائز ظاهرتان الصمت عند مراقبة الدفن ، وكثرة الدعاء ، والذي يستمر لعدة أسابيع بعد الدفن ، ويمتاز أحيانا بتكلفة مادية مرتفعة (١) .

أما عن العقيدة فقد خلط الاوروبيون بين ما أسموه الارتباط بالمسجد وعضوية الطرق الصوفية على ما يبدو . فذكروا أن دخول المساجد للصلاة يسبقه قدر من التعليم يتلقاه الفتية فى المنزل ، ثم يصبحون مؤهلين لذلك ، غالبا عندما يبلغون الحلم أو سن الرابعة عشرة من عمرهم ، فيختبرهم الشيخ فيما يحفظون من قرآن، ويجرى احتفال بهذه المناسبة بالمسجد يستغرق سحابة النهار ، ويحضره أصدقاء الفتى من الشباب ، أو صديقات الفتاة ، والأهل والجيران ، ويقوم الشيخ بقراءة القرآن ، والدعاء . وواضح من هذا كله أن هذا الاحتفال خاص بالانتساب إلى الطرق الصوفية ، أما دخول المسجد واعتياده ، أو ارتياده للصلاة ، فلم يكن يشترط له أى احتفال أو سمة معينة ، وكان الشيخ عند قبوله مريدا جديدا يجلس على كرسى مرتفع ، وأمامه المريد ، ويجرى ترديد أوراد وأحزاب الطريقة الصوفية، ثم يبدأون فى تناول بعض الأطعمة ، وفى نهاية اليوم يأخذ الشيخ لنفسه عهدا عن مريده على السمع والطاعة واتباع العقيدة الإسلامية ، ويوزع الوالدان الصدقات فى هذه المناسبة ، ثم يتفرق الجمع بعد صلاة المغرب .

---

(١) C . O . OP . Cit . , p 190 and Kollisch : OP . Cit . , p . 26 .

وفى هذه المناسبة يرتدى الشيوخ والمريدون أزياء معينة ذات أبهة وجمال كما تتميز النساء فى هذه المناسبة أيضا بالتزيى بالأزياء البيضاء ، ويكن موضع احترام وإعجاب معا . ويسعد الوالدان إذا ما شهد احتفالهم بانتساب ابنهم للطرق الصوفية جمع من المسيحيين من المرموقين فى المجتمع وفى اليوم التالى يقوم المريد بزيارة شيخه وأصدقائه المالاويين ليشكر تشريفهم له بالحضور [(١)] .

ويمثل مشهد خروج مسلمى المالايو إلى إحدى القمم المرتفعة قرب كيب تاون لاستطلاع أوائل الشهور القمرية وبصفة خاصة هلال شهر رمضان ، عادة تقليدية لديهم ، درجوا عليها فى أحفال منتظمة ذات تقاليد ثابتة ، وغالبا ما يشهدها معهم نفر من أبناء المدينة من غير المسلمين ، لمجرد المشاركة المرتبطة بمتابعة الحفل ، أو استجابة لدعوة صديق مسلم . وبعد رؤية الهلال يعودون سريعا إلى منازلهم ، حيث يعلنون لمن خلفهم من المسلمين بداية الشهر الجديد ، ويبدأون الصيام . ويمتاز مسلمو المالايو بدقة عنايتهم بقواعد الصيام وواجباته الدينية ، ويلتزم أغنياؤهم بصفة خاصة بتقديم الطعام من كافة الأصناف إلى الشيوخ ، الذين ينقطعون للتعليم ، وتحفيظ القرآن وإمامة المساجد ، ولا يقدم الفقراء إليهم شيئا ، بل يدعون للإفطار مرارا ، ويتلقون زكاة الفطر ، التى وصفها الأوروبيون « بهدايا آخر الشهر » .

وبعد انتهاء شهر رمضان يحتفل المسلمون بالعيد ، فيخرجون فى ملابسهم الجديدة، ويتزاورون فى جماعات لمدة ثلاثة أيام ، ويخرج أبناؤهم بنين وبنات للعب فى الشوارع ، فى مظهر حسن يروق للمراقبين ، ويكون مثار إعجابهم [(٢)] .

ومن العادات الاجتماعية شديدة الارتباط بالإسلام على صعيد الأطعمة والأشربة امتناع المسلمين فى الكيب عن تناول لحم الخنزير ، بل وعدم التعامل مع أى جزار يبيعه . كما أنهم كذلك يحرمون الخمر ولا يقربونها أبدا ، وإن كانت فئة محدودة منهم تتناول مشروب البيرة ، وهؤلاء لا يكثرون منها ، ولا يتناولونها فى منازلهم، ولا أمام أبنائهم . وبعض هؤلاء لا يعتبرونها حراما ، كالخمور ، ولهم خلاف شديد مع الذين لا يتناولونها [(٣)] .

---

(١) C . O . 48/444 , p . 190 and Kollisch : Op . Cit . , p . 27 .

(٢) C . O . 48/444 , p . 191 and Kolliisch : op . cit . , p . 28 .

(٣) C . O . OP . Cit . , p . 191 and Kkollisch : OP . Cit . , p .29.

على أن من أكثر دلائل إصرار مسلمى المالايو فى الكيب على هويتهم الإسلامية، وتمسكهم بها ، موقفهم من الادلاء بالشهادة فى المحاكم ، ذلك أنهم يحرصون على اصطحاب شيخ من العلماء حاملا مصحفا ، كى يقسم عليه الشاهد، فيضع المصحف فوق رأسه ويردد القسم بعد الشيخ ، باللغة المالايووية عبارات الالتزام بقول الصدق ، مسبوقة بآيات قرآنية حول الشهادة ، مثل « ولا تكتموا الشهادة ، ومن يكتمها فإنه آثم قلبه » . ويرفض كثير منهم تأدية اليمين فى المحكمة إلا فى حضور الشيخ . وبالتالى تؤجل المحكمة الاستماع لشهادته إلى حين حضور هذا الشيخ (١) .

وعلى الصعيد الاقتصادى فإن الأجناس غير البيضاء جميعها لا يمكن أن تقارن بالوضع المتميز لمسلمى المالايو فى الكيب ، فهم قوم أثبتوا فائدتهم التامة للمجتمع، ولا يمثلون عبئا عليه . وعلى الرغم من القيود الاجتماعية التى كانت مفروضة عليهم وإجبارهم على حمل تصاريح المرور ، فقد أصروا على العمل احتراما لأنفسهم ، ولعل ذلك فى سبب من الأسباب يرجع إلى اعتدادهم بأنفسهم باعتبارهم أبناء جيل من الثائرين ضد الحكم الهولندى ، ممن تم نفيهم إلى المستعمرة كمنفيين سياسيين مع بداية الحكم الهولندى للكيب كما أنهم كأسلاف لهؤلاء تصرفوا باعتبار انتمائهم للطبقة الاجتماعية العليا من مسلمى اندونيسيا - سيما جاوه - ومسلمى بلاد المالايو ، وغيرها من الممتلكات الهولندية . وقد أسفرت المتغيرات الاجتماعية عن تكريس دورهم فى المستعمرة فى المجال المهنى ، فقد لعبوا دورا هاما فى عملية البناء والعمران فيها . وكانوا ذوى مهارة معترف بها، لا سيما فى عمليات تقطيع الأحجار ونقشها ، وعمارة المبانى ، وأعمال النجارة والخشب عموما، وغير ذلك من الحرف اليدوية الراقية الفنية رفيعة المستوى. وهم من ناحية أخرى على درجة كبيرة من المهارة فى فنون الطبخ وصناعة الحلوى، لدرجة ينافسون بها أمهر الأوروبيين فى هذا المجال . وهم من ناحية ثالثة يمتازون فى مجال الخدمة المنزلية بالأمانة والنظافة ، لدرجة تجعلهم المفضلين عند الأسر الأوروبية لا سيما الهولندية ، عن أى خدم ملونين آخرين (سيما الأفارقة - أو ملونى الكيب) وهم من ناحية رابعة أفضل سائقى العربات وسائسى ومروضى الخيول ، وهم يمتازون بحسن معاملتها .

(١) C . O . P . Cit . , p . 192 and Kollisch : OP . Cit . , p . 30 .

أما المجال الخامس من مجالات عملهم ، فهو إمداد السفن الراسية فى ميناء تيبل أهم موانىء المستعمرة ، بحاجتها من الأسماك واللحوم والخضروات ، والتى كون كثير منهم أموالا لا بأس بها من خلالها ، ويقومون كذلك بتوفير المواد الغذائية للأسواق والسكان ، حتى صارت لهم تجارةواسعة فى هذا الصدد ، ويعمل كثير منهم فيها ، ويمتلك كثير منهم كذلك سفن وقوارب صيد توفر الإمداد بالأسماك للقبائل التى تعيش على ساحل خليج تيبل ، وبطول سواحل المستعمرة (١) .

وكان ميناء خليج تيبل Table bay port ، وهو الميناء الرئيسى لمستعمرة الكيب ، ويقع قرب مدينة كيب تاون ، أهم مدن مستعمرة رأس الرجاء الصالح ، يضم نحو ما بين ١٢٠٠ و ١٤٠٠ مسلم . وكان هؤلاء من خلال عملهم فى الميناء على صلة بما يجرى فى العالم الإسلامى ، فقد كان هناك عدد كبير من السفن تمر بالميناء فى طريقها بين الشرق أوروبا . وكان كثير من البحارة على متنها من المسلمين ، الذين كانوا ينزلون لحين من الوقت إلى كيب تاون . ومن ثم قارب هؤلاء بين جزيرة زنجبار وجوهانا Johanna ومسقط وغيرها من البلدان الإسلامية. هذا وكل من خليج سيمون ، الواقع على بعد خمسة وعشرين ميلا من خليج تيبل ، وبورت اليزابيث Port Elizabeth على بعد ستمائة ميل منه ، تضم أعدادا كبيرة من المسلمين (٢) .

وفى عام ١٨٥٦ حقق المسلمون فى الكيب نجاحا هاما ، حين صدر بالعربية فى مطبعة شونجفيل بميدان جرين ماركت بكيب تاون Schangevel Greenmarket كتاب لتعليم العقيدة والعبادات والمعاملات الإسلامية وقد تناقلت الصحف متحدثة عن الإخراج الجيد للكتاب ، ومقدرة جهد الناشر فى إصداره ، مع ما صادفه من صعوبات فى طبع الحروف العربية على الحجر ، وطالبت صحيفة Volksblad وصحيفة الكيب جينيس Cape Genius والكوميرشيال ادفيرتيسر، بإيداع نسخة من الكتاب فى متحف جنوب أفريقيا ، نظرا للقيمة البالغة لكتاب صدر بالعربية مطبوعا لا مخطوطا (٣) .

---

(١) C . 0 . 48/444 , p . 192 and Kollisch : op . cit ., p . 30 .

(٢) C . O . OP . Cit . , p . 196 and Kollisch : OP . Cit . , p . 38 .

(٣) C . O . 483444 , p . 177 , South African Commercial Advrtiser , july 26 , 1856 , An Arabic Book for the cape Mlay's Bray .

وكان إصرار مسلمي المالايو على التمسك بالحروف العربية مؤشرا على تمسكهم بدينهم في ظل ضغط تبشيري مهول ، فضلا عن الخضوع لحكم استعماري بريطاني ، وممارسة البيض - هولنديين وبريطانيين - لسياسة عنصرية تميز بين البيض وغير البيض .

وبهذا يمكن القول أن عام ١٨٥٦ شهد نقطة تحول هامة في بحث مسلمي الكيب عن ذاتهم وذاتيتهم ، وتصادف أن كان هذا العام أيضا هو العام الذي بدأت فيه الدولة العثمانية في البحث عن مسلمي الأطراف الإسلامية لتدعيم وجودها في مركز العالم الإسلامي ، كدولة الإسلام الكبرى .

* * *

الفصل الثالث

الدولة العثمانية والمسلمون فى جنوب أفريقيا

- تعيين أول قنصل عام فى كيب تاون -

ذكرنا كيف أخذ العثمانيون يسعون لمد اهتمامهم بالمسلمين لتدعيم وجود دولتهم كدولة الإسلام المركزية ، بينما كان المسلمون فى الكيب يسعون لتأكيد هويتهم الدينية . ولعل هذا يتطلب منا عرض صورة الوضع الإقليمى فى جنوب أفريقيا بحيث يتضح وضع المسلمين فى الوحدات السياسية الأربع التى نشأت حول منتصف القرن التاسع عشر .

ذلك أن حالة من التبرم سادت أوساط البوير منذ تحرير الرقيق ١٨٣٣ وانتهاج الحكم البريطانى سياسة تقوم على صبغ مستعمرة الكيب بالصبغة البريطانية . ومن ثم ساد المستعمرة إحساس قوى بأن المستقبل يحمل فى طياته كثيرا من التغير. وتدعم هذا الإحساس عندما حدثت هجرة البوير فى عام ١٨٣٦ من المستعمرة إلى المناطق الشمالية غير الخاضعة للحكم البريطانى . واندفعت عدة مجموعات منهم مهاجرة فى البرارى ، تشق طريقها وسط جموع الأفارقة التى راحت تقاومهم دون جدوى . وقد أسس البوير عدة دويلات سرعان ما راحت تندمج حتى اعترفت بها بريطانيا كدول مستقلة ، وطبقا لاتفاق نهر الساند فى عام ١٨٥٢ اعترفت باستقلال البوير فى الترنسفال ، والذين كونوا دولة واحدة حملت اسم جمهورية جنوب أفريقيا ، وانتخب بريتوريوس كأول رئيس لها فى ٥ يناير ١٨٥٧ . وطبقا لاتفاق بليمفونتين ١٨٥٤ اعترفت بريطانيا باستقلال دولة أورانج الحرة . وفى نفس الوقت سارعت بريطانيا فى الحلقة الأولى من الأربعينيات إلى مد سيطرتها على الساحل الشرقى لجنوب أفريقيا فى ناتال وزولولاند ، مؤسسة ثانية مستعمراتها فى جنوب أفريقيا (١) .

وقد حاولت بريطانيا تقليل نفقاتها فى جنوب أفريقيا ، والتى كانت باهظة بسبب أهمية وجودها العسكرى فى الكيب على الطريق البحرى إلى الهند ، ورأت تحقيق ذلك عبر سبيلين : الأول - منهما الاعتراف باستقلال البوير فى الترنسفال والأورانج - على ما أوضحنا من قبل - والثانى منهما هو إدارة مستعمرتيها الكيب وناتال - على أساس اقتصادى يتمثل فى اعتمادهما على نفسيهما وتطوير إنتاجهما ودفع الاستثمارات إليهما . وكان أن اتجهت إلى زراعة القطن وقصب

(١) C . O . 444 , p . 54 , Petition to the Right Bonorle the Duke of Buckingham and Chandos , Her Majestey's Secretary of State for the Colonies .

السكر فى ناتال بدلا من استيرادهما . وقد صادف هذا عجزا كاملا من حكومتها عن إخضاع قبيلة الزولو القوية ، ودفع رجالها للعمل فى المزارع البيضاء . ومع حدوث ثورة في الهند عام ١٨٥٧ ، جرى نفى عدد من زعمائها إلى ناتال ، ثم طرحت فكرة التعاقد مع عمال هنود للعمل فى هذه المزارع . وبذا بدأ وصول عمال من الهندوس والمسلمين إلى ناتال [١] .

وعندما نفى الهنود الثائرون إلى ناتال كانوا من المسلمين الذين قاوموا السلطة البريطانية أكثر مما قاومها الهندوس ، ثم توالى اتخاذ إجراءات بريطانية حالت دون تجانس أبناء الهند فى بوتقة قومية واحدة ، حيث أنشئت قوات عسكرية على أساس دينى ، ووزعت الوظائف المدنية بنسب معينة بين المسلمين والهندوس ، وجرى إطلاق اسم العرب على المسلمين فى محاولة لنبذهم عن بنى وطنهم من الهندوس. وهكذا صار الهنود جماعات منفصلة فكرا ولغة ودينا داخل الهند وخارجها . واستمر الانقسام على أرض ناتال ، ثم تدعم نتيجة قيام عدد من كبار التجار المسلمين الهنود بالتجارة مع جنوب أفريقيا ، وتأسيس شركات للملاحة أو للتجارة، وافتتاح فروع لهم بها ، مع ما تطلبه ذلك من الاستعانة بوكلاء لهم فيها، فصار المسلمون فى ناتال يتمتعون بوضع متقدم على الصعيد الاجتماعى ، من حيث الثروة ، ومستوى المعيشة ، والمسكن ، والحفاظ على سمت اجتماعى يقوم على الارتباط بالمسجد ، بينما كان العمال الهندوس يعانون من معاملة تقترب كثيرا من الاسترقاق . وقد أدى هذا الوضع إلى جعل العناصر الإسلامية فى جنوب أفريقيا أكثر ارتباطا بالهند والعالم الخارجى ، من ناحية ، وساعد على نشر الإسلام بين الأفارقة فى مستعمرة ناتال والترنسفال .

كما ظهرت بعض طوائف الإسماعيلية فى جنوب أفريقيا كذلك [٢] .

وقد شهد عام ١٨٦٠ طفرة كبيرة فى تهجير الهنود إلى جنوب أفريقيا للعمل في مزارع القصب ومصانع السكر فى ناتال ، وتزايد بالتالى الارتباط بين الهند والمنطقة[٣] .

---

(١) C . O . 48/444 , pp . 55 - 57 .

وراجع فى ذلك : إبراهيم عبد المجيد ثورة الهند ١٨٥٧ - ١٨٥٨ (فى دورية كلية الآداب - جامعة المنصورة ، العدد ٧ ، ١٩٨٧ ، صص ٢٧١ - ٢٩٨)

(٢) نفس المرجع ص ص ٣٣٣ - ٣٣٦ وكذا :

Joshi , p . o . Indian Rebellion 1857 , New Debihi , 1957 , pp . 146 , 205 - 7 .

(٣) ثناء منير صادق : الهنود فى جنوب أفريقيا (١٨٦٠ - ١٩٢٧) رسالة ماجستير غير منشورة ، تحت إشراف المؤلف ، معهد البحوث الإفريقية ، جامعة القاهرة ، (ص ص ٦٢ - ٧٢) .

ولقد أدى تأسيس ثلاث وحدات سياسية فى فترة زمنية وجيزة ، وإضافة عنصر سكانى جديد إلى جنوب إفريقيا إلى تعقيد الحياة السياسية والاجتماعية فى المنطقة بشكل كبير ، وهى بالأساس حياة معقدة ، ولم تكن بحاجة إلى مزيد ، فسياسياً- انتهجت الوحدات السياسية الأربع سياسات متناقضة ، نظراً لوجود دولتى البوير ؛ اللتين كانتا تعاندان السياسة البريطانية ؛ ومستعمرتى بريطانيا ، وكان بها نسبة عالية جداً من البوير الذين يعاندون الخط السياسى العام للمستعمرتين . كذلك فقد اختلفت سياسة الوحدات السياسية البيضاء إزاء أصحاب الأرض الحقيقيين من الأفارقة ولم يتفهم البيض حالة الأزمة التى عانى منها الإفريقيون بسبب السيطرة على أرضهم وحرمانهم من مواردها وخيراتها ، وحجزهم فى معازل ضيقة صارت مخازن للعمالة الرخيصة فى مزارع السادة البيض ، كما لم يتفهم البيض عادات الأفارقة الرعوية والقبلية ، والتى كان منها عادة « اللوابولا » ، والتى تتمثل فى قيام الفتى بالاستيلاء على ماشية القبائل الأخرى والمستوطنين البيض ، لتقديمها مهراً لعروسه علامة على فروسيته ، وتدشينه رجلا محاربا مع رفاق عمره ضمن برامج تهيئتهم كرجال ومقاتلين قبليين Initiaed warriors . وقد اعتبرت هذه العادات عملا من أعمال المقاومة الإفريقية . وحوالى منتصف القرن التاسع عشر تكرر الصدام بين البريطانيين ومملكة الاكسوزا الواقعة فى شرق مستعمرة الكيب على المحيط مباشرة . ومن أجل هذا كله أرسلت بريطانيا مسئولا من إدارة الخدمة المدنية فى شركة الهند الشرقية البريطانية . THe civil service of the East India co

إلى جنوب إفريقيا ، فاتخذ قرارا بانسحاب القوات البريطانية من المناطق الداخلية والاعتراف باستقلال البوير ، وذلك مراعاة لعدم وجود مصلحة حقيقية لبريطانيا فى جنوب أفريقيا تستدعى تحمل كل تلك النفقات ، اللهم إلا المحافظة على طريق الهند ، وهو أمر تكفله السيطرة على مستعمرتى رأس الرجاء الصالح وناتال ، وهما تسيطران على الطريق الملاحى بين أوروبا والهند من ناحية ، والملاحة فى الساحل الشرقى لإفريقيا من ناحية أخرى.

وفى ضوء ذلك أيضا - واستكمالا لمحاولات تخفيض الإنفاق البريطانى فى جنوب أفريقيا - مُنحت مستعمرة رأس الرجاء الصالح الحكم النيابى ، واستدعى حاكمها سير فيليب وود هاوس الذى كان عنيفا مع الجمعية التشريعية ، وحل

محله سير جورج جراى ، ليصبح مسئولا عن إدارة المستعمرة فى ظل النظام الجديد، كما يصبح أول مندوب سام بريطانى فى جنوب أفريقيا [١] .

وكان من قرارات مستعمرة الكيب الهامة أنها رفضت التماسات الهنود بدخولها، والتى عززت بتزكية حكومة الهند ، وردت عليها بقولها إنه ليس لديها مزارع قصب ولا قطن ، وإن بها أعداداً كافية من التجار . ولعله لهذا السبب لم يكن بمستعمرة الكيب إعداد تستحق الذكر من الهنود . وفى عام ١٨٦٤/ ١٨٦٥ أجرى إحصاء للسكان فى المناطق الخاضعة للحكم البريطانى ، فذكر أنه كان فى الإقليم الغربى من مستعمرة الكيب - والذى تقع فيه شبه جزيرة الكيب ومدينة كيب تاون- عدد (١٠٣,٥٩٧) من البيض مقابل (٢٣١,٠٠٠) من الافارقة . أما فى الإقليم الشرقى ، فضم (١٧٤,٦٩٧) من البيض مقابل (٥٠١,٥٦٤) من الافارقة ، وفى منطقة كافراريا ، وهى منطقة قبيلة الاكسوزا القوية شرق المستعمرة على المحيط فضمت (٨,١٨٣) من البيض مقابل (٧٨,٠١٨) من الافارقة . وفى ناتال كان يوجد (١٦,٩٦٣) من البيض ، مقابل (١٧٠,٨٥٥) من الافارقة . أما الهنود فبلغ عددهم (٦,٥٦٥) نسمة . وبذا يصل الأفارقة إلى (٩٨٢,٠٢٢) نسمة وذلك فى مقابل (٣١٠,٠٠٥) من البيض والهنود فى مستعمرتى ناتال والكيب ، أما المناطق القبلية الإفريقية لقبائل الاباقبى والاكسوزا والجايكا والجاليكا والباسوتو والزولو ، فكانت تضم نحو (٧٠٥,٠٠٠) نسمة إضافة إلى ملونى الجريكوا الذين عاشوا فى شمال شرق وشمال غرب الكيب ، وعاشوا بين الأفارقة ، وقدر عددهم بعشرين ألف ملون [٢] .

وقد تركزت نسبة كبيرة من الهنود فى مدينة ديربان وبالقرب منها ، وكانت نسبة المسلمين منهم تصل إلى ١٦٪ ، مقابل ٧٤٪ من الهندوس ، و ٧٪ من المسيحيين ، إضافة إلى أصحاب عقائد أخرى . وقد جرى استخدام العمال الهنود فى العمل فى مزارع القطن والقصب ، التى طرد منها الأفريقيون من قبيلة الزولو ، ولم يكن هذا بطبيعة الحال مدعاة سرور هؤلاء من الهنود ، لكن ما خفف المشاعر

---

(١) C . O . 48/444 , p . 57 .

(٢) C . O . 48/444 , p . 662 , the Morning Herald Saturday , April 11 , 1866 , withdrawal of the troops from the cape of Good Hope .

نحو الهنود أن التجار المتجولين منهم قدموا السلع والملابس والأدوات المختلفة بأسعار أفضل من أسعار البيض ، وكانوا يقبلون الثمن على أقساط مريحة ، وأدى هذا إلى توفير أرضية للهنود المسلمين لنشر الإسلام فى مناطق الأفارقة بفضل حرصهم على عقيدتهم ، وحسن مظهرهم ، وأماناتهم ، والمصلحة التى وفروها لهم . وفى السبعينيات زادت أعداد التجار المسلمين حتى وصلت نسبتهم إلى ٧٠٪ من الهنود [١] .

وفى عام ١٨٥٦ جذب المسلمون فى الكيب انتباه الدولة العثمانية إليهم نتيجة أمرين : أولهما – وقوع خلاف بينهم ، وثانيهما – طلب أحد مسئولى الأمن بالكيب فتوى من علماء هذه الدولة بشأن ذاك الخلاف . فأما الخلاف بين المسلمين فكان حول ما سمى « بمولد الخليفة » [٢] ، وأما المسئول فهو المدعو بيترز إيمانول دى روبيه P E De Roubai . ولعلنا بحاجة إلى التعرف على دى روبيه قبل الخوض فى تفاصيل الخلاف حول « مولد الخليفة » فدى روبيه ينحدر من أسرة فرنسية نبيلة ، كانت تعيش بضواحى مدينة ليل الفرنسية فى ضيعه تحمل نفس الاسم . وكانت هذه الأسرة قد هاجرت إبان اضطهاد الهيجونوت من دعاة الإصلاح فى فرنسا [٣] وقد ولد دى روبيه فى أول فبراير ١٨٢٦ [٤] وقد نشأ دى روبيه فى إقليم بارل paarl وهو إقليم معروف بأغلبيته الهولندية ، وصار بعد ذلك مستقراً لحركة هولندية قومية ذات انتماء لإفريقيا عرفت باسم الرابطة الافريكانرية Afrikaner Bond [٥] .

وقد دخل دى روبيه الخدمة العامة فى الكيب فى عام ١٨٤٢ ، فى مكتب كاتب الصلح clerc of the peace وتنقل فى عدة مناطق من مستعمرة الكيب مثل

---

(١) ثناء منير صادق : مرجع سابق (ص ص ٩٢ – ٩٤ ، ١٠٢ ، ١٢١) .

(٢) سنعرض لهذا حالا .

(٣) Rouaix , Member C . O 48/444 , pp . 197 - 199 . the Hononable p . E . De of the legislative council of the cape of Good Hope , A Biographical sketch from " the illustrated News of the world " Aug . 22 , 1863 .

(٤) Ibid . , p . 199 وإن كان البعض الآخر قد ذكر انه وُلد فى أول يناير من ذات العام . راجع : Ibid . , p . 204 .

(٥) راجع للمؤلف : مستعمرة الرأس البريطانية ، فصل يقظة القومية الأفريكانرية رسالة دكتوراه غير منشورة – معهد البحوث الإفريقية / جامعة القاهرة .

سومرست ويست Sumerset West وستيلنبوش Stellenbosch إضافة إلى موطن رأسه بارل ، وقد عرف عنه الميل لمساعدة الناس وتقديم الخدمة لهم ، والانخراط فى أعمال الخدمة العامة (١) . كما أنه تنقل بين إدارة الجمارك وإدارة السجلات Registrership وإدارة النائب العام للمستعمرة ، ثم عين كاتبا فى الجمعية التشريعية لمستعمرة الكيب (٢) .

وكان دى روبيه قد عين فى مطلع الخمسينات فى منصب القاضى والمشرف على الشرطة Judge & superintendent of police فى كيب تاون . وقد أبدى - خلال عمله - تعاطفا ملحوظا مع مسلمى الكيب ، الذين كانوا محرومين من ممارسة الحقوق السياسية ، ولم يكن أحد يفهم عقيدتهم ، ولا إصرارهم على التمسك بلغتهم ، كما أنهم على عكس الافارقة لم يستجيبوا للتبشير المسيحى بينهم، وكانوا - على الرغم من الإقرار بمدى فائدتهم للمستعمرة وإمكانياتهم الفنية كعمال - يتعرضون للتحامل والكراهية العنصرية ، بل والعزل العنصرى. ومنذ القانون رقم خمسين لسنة ١٨٢٨ صاروا يحققون مكاسب متتالية تثير حفيظة البيض، ونتيجة لذلك كله صاروا ينظرون بتقدير كبير لتعاطف دى روبيه ، وبخاصة لأنه بدا كما لو كان سابحا ضد التيار ، وإن تكن سباحته على درجة عالية من المهارة ، وكان التيار الأبيض قد قرر تحجيم الصعود الإسلامى لمسلمى الكيب المالايوويين . وكانت نقطة الاختبار هى أزمة كادت تعرض أمنهم وسلمهم للخطر ، وكانت متعلقة باحتفالهم بما سمى « مولد الخليفة » فى موكب كبير كان يخترق شوارع أحيائهم ، وصار منذ ١٨٢٨ يخترق شوارع المدينة كلها . وكان الموكب يضم عدة آلاف منهم يطوفون بشوارع المدينة حاملين الرايات ، وينشدون أناشيد دينية لا يفهمها الأوروبيون ، وهم مع هذا الإنشاد يدقون الطبول ، ويتمايلون ذات اليمين وذات الشمال ، بشكل استهجنه الأوربيون واستغربوا له(٣).

وكان دى روبيه بحكم عمله فى الشرطة على علم بكافة تفاصيل الحياة الاجتماعية لعناصر المستعمرة ، وخلص بينه وبين نفسه إلى إكنان شعور دفين

---

(١) C . O . 48/444 : OP . Cit . , pp . 200- 201 .

(٢) Ibid . , p . 204 .

(٣) C . O . 48/444 , p . 204 , and Kollisch : op . cit . , p . 44 .

باحترام مسلمى الملايو [١] وقد دعى دى روبيه بحكم منصبه للتدخل لوقف الفوضى والهرج والضوضاء الحادثة فى شوارع المدينة بحكم موكب « مولد الخليفة » وبادر دى روبيه بالتدخل ، ودعوة زعماء المسلمين للاجتماع به . ومنهم علم بأن الاحتفال بمولد الخليفة ليس من فروض الإسلام ولا سنته ، ولكنه فهم - خطأ - أنه كان احتفالا خاصا بمولد خليفة النبى - عليه الصلاة والسلام ؛ أى مولد أبى بكر الصديق ، ولكن الواقع أن الاحتفال كان خاصا « بمولد خليفة الشيخ عبد الله عبد السلام » [٢] باعتباره شيخ الطريقة الصوفية لمسلمى الملايو ، وكان الاحتفال شبيها إلى حد التطابق بالاحتفالات الشعبية التى تجرى احتفاء بذكرى موالد آل البيت وموالد الصالحين من المتصوفة فى العالم الإسلامى كله ، على الرغم من عدم « شرعيتها » أو « النص » عليها فى الكتاب ولا فى السنة . ولكن مسلمى الملايو فى الكيب درجوا على الاحتفال السنوى بخروج موكب « خليفة » الشيخ الصوفى عبد الله عبد السلام ، كما كانوا يعتبرون الاحتفال فرصة للتنفيس عن أنفسهم ، وإبراز هويتهم ، بل وطرح أنفسهم كعنصر مطحون يعانى من الكبت والكبح الأوروبى له، فيعمدون إلى ازعاج الأوروبيين ومضايقتهم ، بل وتجاوز الشبان المتحمسون إلى حد الغيظ والكيد لهم [٣] .

ولم تكن عادة المسلمين الاحتفال « بموكب الخليفة » منذ وجودهم فى الكيب ، ولكن تصادف فى هذا الوقت أنهم قد مر عليهم بالمستعمرة قرنان من الزمان ويبدو أنهم قرروا الاحتفال بالمناسبة بشكل ملفت للنظر ، فى محاولة منهم للحصول على مزيد من الاعتراف بأوضاعهم ، وبشرعية عقيدتهم « فى المستعمرة وطرق كل الأبواب المغلقة عسى أن يفتح أحدها ، وأن تغدو المناسبة أقرب ما تكون إلى الاحتجاج العلنى الصاخب ، المتدثر بدثار صوفى يلمح به زعماؤهم وشيوخهم إلى أنهم بعد « صبر ويقين » مستمر لمدة قرنين حافظوا فيهما على هويتهم ،

---

(١) C . O . P . Cit . , p . 191 ', and Kollisch : OP . Cit . , p . 28 .

وراجع (ص ص ١٤ - ١٦) من هذا البحث .

(٢) C . O . OP . Cit . , testimonials , presentation and Addresses to the Right Hon.P . E . De Roubiax , M . L . C . Cape town , Albion press , Hout st 1863 .

(٣) C . O . 48/444 , p . 198 and Kollischm : op . cit . , p . 44 .

وتحملوا ضغوطا رهيبة وإجحافا مستمرا ونكرانا لدينهم وجنسهم ، وحجبا لكل فرص الرقى لم يعد أمامهم إلا أن يقرعوا الطبول علانية فى وضح النهار ، عسى أن يستمع إليهم أحد (١) .

وقد نجح دى روبيه فى التوصل إلى حل يرضى جميع الأطراف أو أغلبها وذلك بفضل حكمة شيوخ المسلمين ؛ فقد وافقوا على منع المواكب من الطواف بالشوارع التى لا يقطنها مسلمون ، وأن يقتصر الاحتفال على مناطق المسلمين ، كما قام بتنظيم الاحتفالات الدينية – فى هذه المناسبة وغيرها – بشكل يتفق مع ما ذهب إليه العلماء من مراعاة « شرعية » الاحتفال ، وإلا فليكن خاصا بمن يشاء ، ولا يزعج غيرهم ، وكان معنى هذا أنه جرى « تعديل طفيف » فى العادات الاجتماعية ، وأن ذلك تطلب تقليص نفوذ المتصوفة من المسلمين فى الكيب ، لصالح المتمسكين بالشرع والسنة ، والحريصين على عدم مخالفة « النصوص » وكان هؤلاء يعرفون باسم أتباع النبى prophet followers (٢) ويبدو أنهم كانوا أشبه ما يكون بأنصار السنة فى مصر . ويبدو كذلك أن تأثير الدعوة السلفية فى نجد قد وصلت إلى مسلمى الكيب خلال رحلات الحج .

وقد جرى الاحتفال بمولد الخليفة بعد ذلك بقليل ، دون أن يحدث ما يعكر صفو العلاقات بين المسلمين والبيض من ناحية ، كما جرى الاحتفال بشكل حضارى من ناحية ثانية ، ومتسقا مع مبادىء الدين من ناحية ثالثة . وهكذا تجنب الجميع أزمة كان يمكن أن تؤدى إلى مواجهة لا يعرف أحد عواقبها ، كما جاء الاحتفال خطابيا فى المساجد ، وكانت الخطب حماسية ذكرت مسلمى الملايو بجهاد الشيخ عبد الله للحفاظ على عقيدة بنى جنسه ، وأن خليفته المتصوف يقتفى أثره على نفس الدرب (٣) .

وقد حظى تصرف دى روبيه برضا سلطان حكومة الكيب والصحافة المحلية فى الكيب ، ومن ثم تناقلته الصحف البريطانية فى معرض مقارنتها بين تصرف مسلمى الكيب المتحضر ، وثورات الأفارقة ضد المستوطنين البيض الطامعين فى

---

(١) C . O . OP . Cit . , p . 191 , and Kollisch : Ibid . , p . 28 .
(٢) C . O . OP . Cit . , p . 199 , and Kollisch : Ibid . , p . 45 .
(٣) C . O . 48/444 , p . 199 , and Kollisch : op . cit . , p . 45 .

أراضيهم . وعلى الرغم من أن المقارنة كانت جائرة ، ولا تنعقد في هذه الحالة جهة للمقارنة بين مدافع عن أرضه يملك قدرا من الاستقلالية ، ولديه هيكل تنظيمي للمقاومة يتمثل في جيش قبلي ، وبين مُهَجّر خاضع للحكم الأبيض ، نفي إلى أرض غريبة يحاول الدفاع عن هويته عن طريق التعليم الديني واللغوي - لا الجيش - وعن طريق الغناء والإصرار على الهوية ، إلا أنه يمكن القول بأن هذه المقارنة كانت في صالح مسلمي المالايو في الكيب . فصارت قضيتهم معروفة في العاصمة البريطانية ، ومن ثم قام السفير العثماني في لندن بنقلها إلى وزارة الخارجية العثمانية من فوره (١) .

وقد صار دى روبيه يحظى بمدح مسلمي المالايو ، مثلما حظى فور حل الأزمة بمدح حكومته . فقد قام شيوخ المسلمين ، بإهدائه محبرة فضية ، لكنه أبى أن يأخذها على اعتبار أنه إنما كان يؤدى عمله وواجبه ، وسرعان ما انضم الباب العالي إلى المادحين لدى روبيه ، فتلقى الرجل خطابا من الصدر الأعظم ، مصحوبا بهدية قيمة ، عبارة عن علبة سفوط ذهبية ، عثمانية الطراز ، بديعة المنظر، تصل قيمتها إلى ألف جنيه استرليني . وشكر وزير الخارجية العثماني محمد عالى باشا لدى روبيه جهوده في سبيل رعاية مسلمي الكيب (٢) .

وقد فقدت هدية الصدر الأعظم ، ولم تصل إلى دى روبيه ، في نفس الوقت الذي نما فيه خبر وجود مسلمين في الكيب ، يعانون من ضغوط تبشيرية يواجهونها بصلابة ويقين ، إلى السلطان عبد المجيد الأول (١٨٣٩ - ١٨٦١) فور إصداره خطي همايون عشية مؤتمر باريس ، فقرر السلطان إرسال هدايا بديلة وتوثيق العلاقة مع دى روبيه وأمثاله في مجتمع الكيب ، ولعل اشتراكه ووزير الخارجية والصدر الأعظم في مراسلته دليل على أن الأمر تجاوز التعبير عن موقف طارىء إلى محاولة إثبات أن الدولة العثمانية هي دولة الإسلام الأولى وأن السلطان هو « خليفة » المسلمين وحامي العقيدة (٣) .

كان حادث موكب الخليفة بداية لتحريك المياه الراكدة سواء بالنسبة لحياة مسلمي

(١) Ibid .

(٢) Ibid .

(٣) C. O. 48/444, p. 179 and Kollisch : Op. Cit., p. 5.

الكيب ، أو حياة دى روبيه العامة ، أو اهتمام الدولة العثمانية بشركائها فى العقيدة فى هذا الصقع البعيد من العالم .

فبالنسبة لمسلمى الكيب اعتبر السلفيون وأنصار السنة منهم أنهم أحرزوا نصرا على المتصوفة فى قضية « موكب الخليفة » ، وتزايدت حملتهم لردهم إلى اتباع السنة والالتزام بها ، وعدم صبغ الاحتفالات ذات الطابع الاجتماعى بالصبغة الدينية (١) . وذكر هؤلاء أن مجتمع الكيب لا يفهم عبادات المسلمين ، ومن ثم فإن تقديم صورة صحيحة للإسلام أدعى للاحترام من صبغ هذه العبادات بما ليس فيها من مواكب ذات طبول وضوضاء وأعلام ورايات ، وكان لدى السلفيين كثير من الحق فى سعيهم لوقف مواكب المتصوفة ، حيث إن فريقا من الاوروبيين اعتبرها عملا يستهدف « تحضير الأرواح » ، حتى إنه بعد الأزمة بأربع سنوات ، أى فى عام (١٨٦٠) وخلال زيارة الأمير ألفريد - دوق ادنبره وابن الملكة فيكتوريا ملكة المملكة المتحدة (٢) ، اطلع على كتيب كان قد صدر حول « أزمة موكب الخليفة » وسأل عن قضية تحضير ، الهنود للأرواح » (٣) ، فأفاده العلماء المسلمون بأنهم ليسوا هنودا ، وأنهم ملتزمون بالشريعة ، التى هى محض عبادات : للتقرب من الله ، تحض علي التقوى ؛ ومعاملات : تحض على الأمانة والشجاعة والشهامة والواجب ، أما تحضير الأرواح فالبعض من المسلمين يمارسها وفق طقوس موروثة ذات مدلولات اجتماعية وليست دينية ، وذلك مثلما يمارسها بعض أصحاب الديانات الأخرى ، وأفاض السلفيون من المسلمين فى ذم ولعن السحر « ولا يفلح الساحر حيث أتى » (٤) .

ولقد أسفر الضغط السلفى على الصوفية عن حالة من العداء بين عدد من الأئمة والشيوخ من هذا الفريق وذاك ، مما استتبع حدوث منازعات بين أتباع الفريقين ، وقد سارع زعماء المسلمين بالعمل على تهدئة الأمور أو إصلاح ذات البين ، ولكن لما اتسع الخرق عليهم عهدوا إلى دى روبيه بالتدخل (٥)

---

(١) C . O . OP . Cit . , p . 199 , and Kollisch : OP . Cit . , p . 44 .

(٢) C . O . OP . Cit . , p . 191 , and Kollisch : OP . Cit . , p . 29 .

(٣) C . O . OP . Cit . , p . 191 , and Kollisch : OP . Cit . , p . 28 .

(٤) C . O . 48/444 , p . 191 . والآية هى رقم ٦٩ من سورة طه .

(٥) Kollisch OP . Cit . , p . 29 .

ولعلنا نتساءل ولم دى روبيه ؟ فالرجل فى المرة الاولى - خلال أزمة موكب الخليفة دعى للتدخل من قبل الأوروبيين ، وضد رغبة المسلمين الراغبين فى تسيير الموكب فى شوارع المدينة ، ثم هو غير مسلم .

والواقع أن مجتمع مسلمى الكيب كان يفتقد قيادة من ناحية فى ظل انقسامه بين السلفيين والمتصوفين من ناحية ، وبين أغنياء وفقراء من ناحية أخرى ، ثم فى ظل خضوعه لحكم بريطانى يهيمن على الحياة السياسية فيه أغلبية بويرية أفريكانرية . ولقد أدى تدخل دى روبيه فى أزمة موكب الخليفة إلى جعله وجها مقبولا لدى مسلمى الكيب ، وشخصا مرموقا يمكن أن يكون واسطتهم لدى السلطات البيضاء بحكم كونه محسوبا عليها كأبيض .

ولقد جاء دى روبيه إلى أزمة النزاع بين المتصوفة والسلفيين مزودا - هذه المرة - بكثير من الاطلاع على الدين الإسلامى وأركانه وعباداته ، كما جاء بمشروع متكامل يقوم على ربط مجتمع مسلمى الكيب وشد بعضه إلى بعض ، بغض النظر عن الانقسامات الدينية والاجتماعية والطبقية . وتمكن الرجل من جمع تبرعات من الأغنياء لتحسين أوضاع الفقراء ، كما تمكن من جمع المسلمين حول قضية «التحضر والدور الذى يمكن للمسلمين أن يقوموا به فى مجتمع الكيب » (١) .

وهكذا أرضى دى روبيه قيادات المسلمين ، حتى جمعهم على الطريقة المثلى لمعالجة أحوالهم العامة فى المستعمرة ، وحل مشاكلهم البينية بالتفاهم وحسن التفكير ، والانطلاق من القيم الإسلامية من ناحية ، ومن قوانين المستعمرة من ناحية أخرى . وسرعان ما توحدت الجماعة الإسلامية فى الكيب ، وصاروا يمارسون عباداتهم فى مساجدهم دون منازعات ، وراحوا يقدمون لمجتمعهم خدمات استرعت احترام الآخرين (٢) .

وعلى الرغم من أن تصرف دى روبيه كان لصالح مجتمع الكيب ككل ، إلا أن الرجل واجه حملة عدائية مضاده ، بسبب « كونه صديقا قويا وحاميا للقضية الإسلامية » ، مما اعتبره البعض مدعاة لفقد تأييد المسيحيين ، الذين كان لهم

---

(١) C . O . 48/444 , p . 180 , and Kkollisch , OP . Cit . , p . 6 .

(٢) C . O . 48/444 , p . 180 , and Kollisch , OP . Cit . , p . 6 .

وحدهم - كبيض - حق التصويت . ولقد ظهرت نتيجة هذه الحملة جلية حين رشح دى روبيه نفسه - فى أول النصف الثانى من عام ١٨٥٦ فى انتخابات البرلمان الكيبى ، وتحديدا للجمعية التشريعية House of Assembly ذلك أن الرجل فشل فى الحصول على الأصوات الكافية لنيل مقعد فى البرلمان . ومع هذا استمر دى روبيه فى رعايته لقضية المسلمين بنفس القوة ، بل لقد فتح هذه القضية على مصراعيها ، وبذل فى سبيلها نفوذه وماله ، كما استمر فى عمله بقوة وإخلاص، وراح يؤدى دوره الوظيفى والاجتماعى بشكل دعا إلى احترامه حتى من ألد أعداءه، وبادله المسلمون ذات الشعور ، فدعوا بعد هزيمته إلى عشاء عام فى نوفمبر ١٨٥٧ ، حيث قدمت له الهدايا تقديرا لدوره فى دعم قضيا العمل الإسلامى والاجتماعى على السواء [١] . وأخيرا واتت دى روبيه فرصة جديدة للدلوف إلى المقعد البرلمانى ، حين دخل انتخابات المجلس التشريعى Legislative Council ، فى عام ١٨٥٨ ، فنجح ، بعد أن نال ثقة الغالبية العظمى من ناخبيه [٢] .

وهكذا التقت مصلحتا المسلمين ودى روبيه : هو وجد طريقه إلى العمل العام من خلالهم ؛ وهم وجدوا نصيرا فى البرلمان من خلاله . ولقد لفت ذلك كله انتباه الباب العالى ، وبدأ ينظر بعين الارتياح لجهود دى روبيه لصالح المسلمين لدى حكومته وفى برلمان الكيب . وقر قرار الدولة العثمانية على التعاون معه لرعاية شركائها فى العقيدة فى هذا الصقع البعيد من العالم والذين لا تجد سبيلا مباشرا للوصول إليهم [٣] .

ولما كانت الكيب مستعمرة بريطانية ، فقد تلقى السفير العثمانى فى لندن تعليمات محددة بأن ينقل للحكومة البريطانية شكر الباب العالى لجهود دى روبيه لصالح المسلمين ، ورغبته - أى الباب العالى - فى أن تتاح له فرصة العمل على رعاية المسلمين وإمدادهم بحاجتهم من المعرفة الدينية من خلال المراجع أو العلماء . وكان المناخ العثمانى بعد خطى همايونى ، والمناخ الدولى بعد مؤتمر باريس ، مهيآن لقبول بريطانيا أن تمتد رعاية الدولة العثمانية إلى أقصى الجنوب ، حيث مسلمى الكيب [١] .

---

(١) C. O. 48 / 444, p. 1198, and Kollisch: OP. Cit., p 43.

(٢) C. O. OP. Cit, 180, Kollisch: OP. Cit., pp 6 - 7.

(٣) C. O. OP. Cit, p 178, and Kollisch: OP. Cit., p. 4.

(٤) C. O. 48/444, p. 178, and kollisch: Op. Cit., p. 4.

وقد وصلت إلى الدولة العثمانية رسائل من زعماء المسلمين فى الكيب تشيد بموقف دى روبيه ، وتطلب منها العون والمساعدة فى ذات الوقت [١] .

وبينما الأمر على هذا النحو وقعت واقعة أدت إلى دعم موقف دى روبيه السياسى والعام ، وذلك فى عام ١٨٥٩ ، فقد نشبت حرب بين المستوطنين البيض وإحدى القبائل الإفريقية على الحدود الشرقية للمستعمرة [٢]. وكان حاكم عام المستعمرة السير جورج جراى George Gray قد قدم ميزانية وزارة المستعمرات فى مستعمرة الكيب ؛ وهى الوزارة المعنية بالتوسع الاستيطانى ، إلى البرلمان ، والتى يتم الإنفاق منها على صراعات الحدود . وقد حدث صراع فى البرلمان بشأن هذه الميزانية ، واحتدم الصراع بين كل من مجلسى البرلمان ؛ المجلس التشريعى والجمعية التشريعية حولها . وهذا من ناحية ، وكذلك احتدم الصراع بين عنصرى البيض الهولنديين والانجليز ، فقد كان المستوطنون الهولنديون مؤيدين للتوسع الاستعمارى فى شرق المستعمرة ، ومن ثم الإنفاق على حرب « الكافيرز » الافارقة، بينما كان الإنجليز يطالبون باستثمار جيد فى الأرض التى تسيطر عليها المستعمرة فعلا ، وانعكس هذا الصراع علي مجلس البرلمان . وبينما الصراع على أشده جرى التصويت مرة ومرة ، فلم تحصل الحكومة على الأغلبية اللازمة . وكان أمام الحاكم عدة حلول منها حل البرلمان ، وإجراء انتخابات جديدة ، مما يعطل الإنفاق على الحرب لبضعة أسابيع على الأقل ، وخيم شبح الأزمة على مستعمرة الكيب [٣] .

أما دى روبيه فقد حالت ظروف مرضه دون متابعة تطورات الموقف ، ولما علم بموقف التصويت داخل البرلمان ، اتخذ قرارا بالتوجه إلى اجتماعه ، على الرغم من تحذيرات طبيه بخطورة الأمر على صحته ، ثم كان صوته هو الصوت المرجح

---

(١) C . O . Ibid . , p . 181 , and kollisch : Ibid . , p . 29 .

(٢) كانت هذه الحرب واحدة من سلسلة الحروب التى شنها المستوطنون البيض ضد الأفارقة فى المناطق الشرقية ، والتى حملت اسم حروب الكفار kaffir wars واختلف المؤرخون بشأنها هل هى احد عشر حربا أم يزيد ، وقد استمرت منذ القرن السابع عشر وحتى مطلع القرن العشرين ؛ وهى تشكل معالم واضحة على طريق المقاومة الإفريقية للمستعمر الاستيطانى الأبيض راجع :
Walker , Eric A . : Op . Cit . , pp . 115 - 6 .

(٣) C . O . 48/444 , p . 197 , the Hnourable P . E . De Roubaix , Member of the legislative council of the cape of Good Hope Op . Cit .

لموقف الحكومة ، وإقرار ميزانية « الدفاع » عن حدود المستعمرة الشرقية وعلى هنا كان صوت دى روبيه أهم صوت برلمانى ، وأصبح هو أشهر النواب على الإطلاق، وصار إسهامه بالتصويت ، فى ظل مرضه ، موضع تقدير الكافة ، حتى وُصف بأنه منقذ المستعمرة وصديق الحكومة . وحظى دى روبيه نتيجة لذلك بمنزلة سياسية محترمة لدى البيض ، ومن ثم صارت جهوده لصالح مسلمى الكيب أكبر قبولا لديهم من ذى قبل ، كما تكررت المقارنة غير المنطقية بين مسالة مسلمى الكيب فى قلب كيب تاون وبورت اليزابيث وايست لندن وغيرها من مدن الجنوب وبين مقاومة الأفارقة للدفاع عن أرضهم التى يسعى المستوطنون البيض للسيطرة عليها [١] .

وقد ازدادت شعبية دى روبيه لدى البيض ، وزادت مشاعر الإعجاب به بعد أن كرس نشاطه وحماسه لدفع قضية التماسك الاجتماعى للبيض من ناحية ، ودفع مسلمى الكيب إلى التماسك الاجتماعى من ناحية أخرى ، بغرض ضمان ولائهم للحكم الابيض ، ونيل ثقتهم فيه ، وإبراز فوائد هذا الحكم لهم ولقضية الدين الإسلامى فى المستعمرة ، وتحقيق المكاسب لهم على الأصعدة الاجتماعية والاقتصادية . وبهذا تحدد دور دى روبيه ، وانطلق يمارسه ، حتى حاز ثقة الحكومة والسياسيين والجمهور على السواء ، كعنصر برلمانى لامع ، وكسياسى بارع، ورجل مجتمع من الطراز الاول [٢] .

وقد تلقى دى روبيه خطابا من المستوطنين البيض يشكرونه على موقفه من قضية الحدود ، أثناء نظر ميزانية وزارة المستعمرات فى البرلمان ، لمواجهة « مخاطر الافارقة » [٣] . وبادر المستوطنون بإطلاق اسمه على إحدى القرى ، كما صار نجم الحفلات واللقاءات العامة ، وغدا شخصية مسموعة الكلمة فى كافة القضايا والخلافات الهامة [٤] .

---

(١) Kollisch : OP . Cit . , pp . 42 Klbid . , pp . 197 - 8 , and

(٢) C . O . OP . Cit . , p 199 , and Kollisch : OP . Cit . , p . 44 .

(٣) C . O . 48/444 , p . 198 , to the Hon. P . E . De Roubaix , Esquire , Member of the legisative council of the cape of Good Hope , from the Residents of the fronteirs of the colony .

(٤) Ibid .

فى ظل هذه الظروف ، وبعد المنزلة المرموقة التى حققها دى روبيه بادر بالاتصال بالباب العالى وبالاتصال بالسلطان عبد المجيد يطلب إليه مد رعايته إلى مسلمى جنوب أفريقيا ، وتوفير الأموال اللازمة لإصلاح أحوال مساجدهم أو بناء مساجد جديدة ، وبناء مدارس ومستشفيات لهم ، ولقد تلقى دى روبيه رسالة مشجعة من وزير الخارجية العثمانى محمد عالى باشا ، على الرغم من عدم شغله أى منصب رسمى لدى الدولة العثمانية . كذلك فقد استمر دى روبيه يداوم على الاتصال بعالى باشا ويطرح أفكاره فى هذا الصدد . وأبدى السلطان عبد المجيد حماسا ملحوظا للتعرون مع الرجل ، بعد الفكرة الطيبة التى كونها عنه وعن مسلمى المالايو فى جنوب أفريقيا ، كما أبدى اهتمامه ، خلال عهده ، وبكل وسيلة متاحة - برفاهية وتقدم هذه الطبقة من شعب جنوب أفريقيا ، وتوالت أعماله فى هذا الصدد [١] .

وتمثل الفترة منذ ١٨٥٩ وحتى ١٨٦٣ فترة اتصال مستمر بين الدولة العثمانية ومسلمى الكيب بوساطة دى روبيه [٢] . ولم يكن اهتمام الدولة بهم إلا جزءاً من مرحلة تاريخية شهدت هذا الاهتمام بمسلمى الأطراف لدعم دور الدولة العثمانية كدولة الإسلام الأولى . ولقد أثبت دى روبيه اتساقا تاما مع هذه الأهداف العثمانية ، فبدأ يقوى اتصاله بقيادات المسلمين فى كافة أنحاء جنوب أفريقيا ، حتى صار واسطتهم أمام محاكم العدالة والحكومة والبرلمان ، نصيرا لحقوقهم الدينية . وهكذا حمل الرجل أمانة إنسانية وأخلاقية بقوة وعزم ، ومضى بها كما لو كان مسئولا عثمانيا . وتدعم تنظيم مجتمع مسلمى الكيب ، وامتد التنظيم الاجتماعى الطابع إلى كل مكان يتواجد فيه المسلمون على الأرض الإفريقية فى الجنوب تقع تحت الحكم البريطانى بل إنه مد خدماته للمسلمين الذين يصلون المستعمرة ، سواء من الهند أو زنجبار أو جزيرة Johanna أوباتافيا [٣] .

وقد أرسلت السلطات العثمانية رسائل عديدة لمسلمى الكيب تناولت الموضوعات التى طرحوها فى رسائل سابقة لهم ، وعلى صعيد العلاقات السياسية ، فقد نصح السلطان العثمانى فى إحدى رسائله لأئمة مساجد كيب تاون ، نصحهم ، بتقدير

---

(١) Ibid . , p . 193 , and Kollisch : Op . Cit . , p . 31 .

(٢) C . O . OP . Cit . , p . 180 , and Kollisch : OP. Cit . , p . 7 .

(٣) C . O . 48/444 , p . 180 and Kollisch : OP . Cit . , p. 7 .

مزايا الحكم البريطانى الذى يحيون فى ظله حياة سعيدة [١] . وبطبيعة الحال لم يكن ذلك إلا الخطاب الوحيد الذى يستطيع السلطان أن ينصح به ، فى ظل الظروف الدولية المعروفة للدولة العثمانية فى أعقاب مواجهة دامية مع روسيا ، ونصرة حقيقية من بريطانيا ، كما كان مسلمو هذا المكان البعيد ، يشكلون أقلية محدودة التأثير ، ولم تكن رعاية الدولة العثمانية لهم ذات أى جدوى لصالح المسلمين . وذلك أنه بينما ظهرت الدولة العثمانية بمظهر دولة الإسلام الكبرى ، نتيجة هذا التدخل ، فإن بريطانيا ظهرت كدولة ليبرالية تعطف على رعاياها من المسلمين ، إضافة إلى ذلك فإن التدخل العثمانى لصالح مسلمى الكيب كان فى صالح المستعمرة . فالدولة العثمانية كدولة سنية وصوفية اتسقت فى تدخلها مع اتجاه الغالبية العظمى من المسلمين السنيين المتصوفة فى الكيب ومن ثم فإن تدخلها أضعف القوى السلفية بينهم من ناحية ، وساعد على إنهاء احتمالات المواجهة بينهم وبين الحكومة البيضاء ، التى كانت تخشى قيامهم - وهم نصف سكان العاصمة بممارسة « الإسلام الثورى » . وكان التدخل أخيرا لصالح مسلمى الكيب بل والجنوب الإفريقى عموما ، الذين ازدهرت مصالحهم ونمت على الرغم من خضوعهم لحكم استعمارى أبيض [٢] .

ومن أجل هذا كله لقيت مهمة دى روبيه « التطوعية » عناية ورعاية الدولة العثمانية من ناحية ، والحكومة البريطانية وحكومة المستعمرة من ناحية أخرى . «وألهبت الاتصالات العثمانية بدى روبيه ومسلمى الكيب مشاعرهم ، وتلهفهم على نيل الحماية العثمانية ، باعتبارها طريقهم للتماسك الاجتماعى ، وصيانة العقيدة ، وتوفير فرص الرقى والتقدم » [٣] .

وقد واتت مسلمى الكيب فرصة التعبير عن مشاعرهم الفياضة وتعلق آمالهم بالدولة العثمانية ، حين زارت الباخرة العثمانية بروسا Brossa بقيادة الكومودور على بك commodore Ali Bay فى سبتمبر ١٨٥٩ ميناء سيمونز تاون . فقد توافد المسلمون فى الكيب إلى الميناء مرحبين بإخوانهم فى الدين فى تظاهرة شعورية

---

(١) C . O . OP . Cit . , p . 188 and Kollisch : OP . Cit . , p . 22 .
(٢) Ibid .
(٣) C . O . 48/444 , p . 196 , and Kollisch : Op . Cit . , p . 39 .
(٤) C . O . OP . Cit . , p . 188 , and Kollisch : OP . Cit . , p . 24 .

راقية . أما مسلمو ميناء بورت اليزابيث فأرسلوا برقية إلى قبطان الباخرة تعبر عن ذات الشعور [1] .

كان ذلك إذا أول اتصال عثمانى مباشر بمسلمى الكيب . وعلى الرغم من أنه الأخير – والوحيد على هذا المستوى الذى ورد فى الوثائق ، إلا أنه جاء فى سياق الأحداث دليلا جليا على الاهتمام العثمانى الفعلي بمسلمى المنطقة .

وقد توالت النجاحات التى أحرزها مسلمو الكيب وناتال بمساعدة النائب دى روبيه . ففى عام ١٨٦٠ أصدر البرلمان القانون رقم ١٦ لهذه السنة ؛ وكان متعلقا بزواج مسلمى الكيب . وكانت مشكلتهم فيما يتعلق بالزواج مزدوجة ذلك أن الحكم الاستعمارى لم يكن يعترف بزواجهم من ناحية ، ولا بتعدد الزوجات من ناحية أخرى . وكان مسلمو الكيب يتمسكون بالتعدد لأسباب اجتماعية تتمثل فى رعاية الأخ لزوجة وأبناء أخيه بعد موته ؛ وكذلك لأسباب دينية تتمثل فى النص على التعدد فى القرآن وبرغبتهم فى إعماله . وعدم تعطيله ، ولم تكن مواقفهم من التعدد سواء ، فقد اختلف وضع العلماء عن العامة ، ووضع الأغنياء عن الفقراء . بيد أن القاعدة كانت زواج أحدهم بواحدة . لكن الأوروبيين سووا بين الجميع فى الاستنكار ، ولم يفهموا الوظيفة الاجتماعية للتعدد ، بل لم يعترفوا بمشروعية الزواج الإسلامى ، لأنه « ليس زواجا مسيحيا » [2] .

وبالنظر إلى هذا الموقف فقد جاء القانون رقم ١٦ لسنة ١٨٦٠ ليحقق تقدما ملحوظا ، سواء فى الاعتراف بالزواج الإسلامى كزواج قانونى ومشروع ، أو حين اتخذ موقفا من قضية التعدد غاية فى العدالة والإنصاف فى إطار الظروف الموضوعية المحيطة ، فقد نص البند الرابع من القانون على أنه « على الحاكم أن يعين موظفى الزواج Marriage officers[1] ، لمراقبة قانونية زواج الأشخاص الذين يدينون بالعقيدة المحمدية – الإسلام – فإذا ما توفر شرط إشهار الموظف للزواج ، فلا يمكن إبطال هذا الزواج أو إدانته ، بحجة انتماء أى من طرفى الزواج إلى هذه الطبقة أو الملة التى عين لها موظف الزواج » [3] وعالج البند السادس من القانون قضية التعدد

---

(١) C . O . OP . Cit . , p . 188 , and Kollisch : OP . Cit . , p . 24

(٢) Kollisch : OP . Cit . , pp . 38-9 .

(٣) راجع نص البند الرابع من القانون فى C . O . 48/444 , p . 188 .
وكذلك Kollisch : op . cit . , p . 24 .

فنص على أنه « يخول لأية امرأة يتقدم للزواج منها رجل يندرج تحت الملة المشار إليها - طبقا للعادات والأعراف المحمدية - أن تتقدم باعتراض على هذا الأساس »[١] .

وقد أشار القانون لقضية التعدد دون أن يذكرها بالتحديد وإنما تضمنها في عبارة « طبقا للعادات والأعراف المحمدية » . وكانت إتاحة فرصة الاعتراض للمرأة التى يتقدم لها رجل متزوج تعنى عدم حدوث إكراه على التعدد ، وحدوثه برضا الطرفين ، ولما كان قد عرف عن مسلمى الكيب استقرار أوضاعهم الاجتماعية ، ورعاية الأسرة لبنيها بدقة ، فلم تتكرر الشكوى من التعدد بين نسائهم ، اللائى لم يكن يقبلن على شكوى الرجال إذا ما عددوا الزوجات . ومن ثم كان النص القانونى يشمل ضمنا إرضاء البيض ، ولم يؤثر على أوضاع الأزواج الذين يعددون فكأنه أرضاهم واقعا [٢] .

وبعد وفاة السلطان عبد المجيد وتولى السلطان عبد العزيز الحكم عام ١٨٦١ استمر اهتمام الدولة العثمانية بمسلمى الكيب ، وتوثق الاتصال بينها وبين مستر دى روبيه . وبدأت دائرة الاهتمام تتسع . وفى البداية ، أرسلت الحكومة العثمانية بتعليمات وزير الخارجية عالى باشا ، وفدا دينيا رفيع المستوى ، يرأسه أحد كبار العلماء المسلمين ، ويضم مجموعة منهم ، « ليبحث أحوال مسلمى الكيب والمصالحة بينهم ، وتحديد واجبات العلماء » . وتحمل الباب العالى نفقات سفر الوفد وإقامته ، كما حمل هدايا قيمة ومساعدات سخية للمسلمين ، ومن الملاحظ أن الوفد مال إلى جانب المتصوفة من مسلمى الكيب ، أدى هذا إلى عدم استحسان « السلفيين » لوجوده ، وكان هذا « الهوى الصوفى » للوفد متسقا مع تشجيع الدولة العثمانية للمتصوفة ، وكان بالتالى أمرا تلقائيا . لكنه أدى إلى إعطاب الشطر الخاص بالمصالحة بين المسلمين من مهمة الوفد ، بيد أنه حقق إنجازا طيبا على صعيد التفهم الكامل لظروفهم وأسفر عن نتائج سياسية هامة ، إذ عرض الوفد على المسئولين - بعد عودته - جهود دى روبيه لصالح المسلمين ، ومدى إخلاصه لقضيتهم ، بل لقضية الإنسان من حيث هو إنسان [٣] .

---

(١) C . O . 48/444 , pp . 188 - 9 .
(٢) Ibid .
(٣) C . O . 48/444 , p . 193 , and Kollisch : Op . Cit . , p . 31 .

ومع مطلع الستينيات من القرن التاسع عشر سادت جنوب أفريقيا موجة من الجفاف ، وتردت أحوال المزارعين البيض ، حتى هاجر بعضهم إلى نيوزيلاند ، وهاجر البعض الآخر إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، التى أرسلت سفينة نقلتهم إليها . وكان الجفاف أشد قسوة على الأفارقة ، الذين لم يجدوا أحداً يساعدهم ولا كانت لهم جهة تستقبلهم لبدء حياة جديدة ، وكذلك كان الحال بالنسبة للمسلمين فى جنوب أفريقيا . بيد أن معاناة المهاجرين أو المهجرين الجدد من المسلمين الهنود، الذين جيىء بهم من بلادهم منفيين عقب الثورة الهندية ١٨٥٧ ، أو بعقود عمل لاستخدامهم فى مزارع القصب ومصانع السكر ، كانت أكثر قسوة ، ولما كان هؤلاء يحيون فى مستعمرة ناتال البريطانية ، بعيدا عن إخوانهم من مسلمى الكيب فقد أخذوا فى مراسلة دى روبيه عارضين عليه أزمتهم الشديدة ، سيما من انتهت عقودهم ، وراحوا يسعون للبحث عن مورد للرزق فى مجتمع عنصرى ، يقيد التحركات ، ويلزمهم بحمل تصاريح المرور ، ويعتبرهم جنسا أدنى ، وقوما منحطين ، ويتحامل ضدهم بسبب اللون والعقيدة [١] .

وقد أوفد المسلمون الهنود فى بورت اليزابيث خطابا لدى روبيه قالوا فيه بأنهم لما كانوا يحيون تحت حكم حكومة ليبرالية ، ولما كانوا يرغبون فى أن يؤكدوا بسلوكهم العملى أنهم يستحقون الجهد الذى يبذله دى روبيه فى سبيلهم ، فإنهم يفوضونه فى تمثيلهم لدى الحكومة ، ويحملونه أمانة رعاية مصالحهم بحكم صلته بالباب العالى ، وبصفة خاصة إزاء تشتت المسلمين وتوزعهم فى جنوب أفريقيا ، بحيث كان يفصل بينهم آلاف الأميال ، وبحكم التحامل الذى يعانون منه من المسيحيين البيض ، وأكد مسلمو بورت اليزابيث أن ما سمعوه من إخوتهم مسلمى الكيب ، وما قرأوه فى الصحف عن جهده من أجل المسلمين » حتى أولئك الذين لم يعش بينهم ويعرفهم ، يجعل كل مسلم أيا كان موقعه فى أى مكان من العالم، يثق فى مساعدة دى روبيه متى احتاج إليه ، وأنهم كفقراء ليس لديهم ما يقدمونه له ، لا يجدون سوى آيات الشكر والتقدير يزجونها بين يديه [٢] .

وقد سارع دى روبيه بعرض قضية المسلمين الهنود على المسئولين فى الكيب ،

---

(١) C . O . OP . Cit . , p 181 , and Kollisch : OP . Cit . , p . 10 .

(٢) C . O . 48/444 , p . 182 , and Kollisch : op . cit . , p . 11 .

وطالب بتدخلهم لدى حكومة ناتال . كما اتصل بالمندوب السامى البريطانى فى جنوب أفريقيا وحاكم الكيب فى نفس الوقت يطلب إليه التأثير على حكومة الناتال لتزويد المسلمين وتقديم الطعام والملابس ، وبادر هو بتقديم ما بوسعه لمساعدتهم . كما أرسل دى روبيه يطلب مساعدة الدولة العثمانية والحكومة البريطانية ، واصفا مسلمى الهند الذى جاءوا إلى جنوب أفريقيا ، والحالة القاسية التى كانوا يعانون منها ، حتى قال بأنهم يبدون كما لو كانت المعاناة من نصيبهم ، والفقر توأم جنسهم ؛ على الرغم من كونهم رعايا بريطانيين ، يحق لهم أن ترعاهم حكومتهم سواء فى الهند أم فى جنوب أفريقيا .

وكان أن تحرك حاكم مستعمرة رأس الرجاء الصالح سير فيليب وود هاوس والحكومة البريطانية والباب العالى ، حتى أمكن توفير بعض المساعدة لمسلمى جنوب أفريقيا . وقد أرسل المسلمون إلى الباب العالى يمتدحون موقفه خلال الأزمة الاقتصادية التى مروا بها ، ويعقودون عزمهم على الاحتفال بعيد ميلاده ، كما أرسلوا لملكة بريطانيا يعلنون ولاءهم لها ، ورغبتهم فى الاحتفال بعيد ميلاد حاكم المسلمين وخليفة نبيهم ، ويؤكدون إخلاصهم وولاءهم لها فى نفس الوقت.

وفى عام ١٨٦٢ أسر البريطانيون فى خليج تيبل سفينة عربية من السفن التابعة لمواطنى سلطنة زنجبار ، بحجة تجارة الرقيق ، ومن ثم حجز هؤلاء لمدة تقترب من عامين ، كما تم تدمير سفينتهم ، وبعد تحقيقات مطولة ، اكتشفت العدالة البريطانية غير الناجزة فى كيب تاون براءة التجار ، وأن النساء والأطفال الذين بصحبتهم ليسوا سوى زوجاتهم وأبنائهم ، ومن ثم فقد أطلق سراحهم فى مناطق مسلمى المالايو ، ليعانوا من حياة الفقر وشظف العيش . فطلب المسلمون من مستر دى روبيه التدخل فى المسألة ، فقام على الفور بالعمل على توفير ما يحتاجونه من مسكن وملبس ومطعم . ثم قام بإرسال رجل نابه منهم إلى زنجبار على نفقته الخاصة ، فقابل سلطان زنجبار ؛ الذى رتب مسألة ترحيل البحارة وزوجاتهم وأبنائهم . ولم يكتف دى روبيه بذلك بل نجح فى إثارة الأمر ، على مستوى الامبراطورية البريطانية ، فجرت مناقشة المسألة فى مجلس العموم البريطانى ولفت نظر الضباط البريطانيين إلى عدم التصرف بشكل فردى ، ودون إحساس

---

(١) C . O OP .Cit . , p . 185 , and Kollisch : OP . Cit . , p 16 .

بالمسئولية، وبما يضر بمصالح الاجانب وبصفة خاصة من يقعون أسرى فى أيديهم [١] .

وقد تحمل دى روبيه مسئولية وأعباء الإنفاق على مسلمى زنجبار هؤلاء لفترة طويلة ، وتكرر مثل هذا مع بعض البحارة المصريين أيضا [٢] .

وقد امتدح البرلمان تصرف دى روبيه ، وصار دوره كذلك محل تقدير سواء من ذوى القلوب الرحيمة من عامة الناس ، أو من المسئولين المحليين فى الكيب وناتال، أو من المسئولين كالبريطانيين فى لندن ، بعد أن تحدثت الصحف عن موقفه الاخير حيال المسلمين الهنود فى ناتال . ومن ثم بادر السفير العثمانى فى لندن بإبلاغ الأمر إلى السلطان العثمانى ، الذى أظهر تقديره وامتنانه باتخاذ قرار بتعيين دى روبيه قنصلا عاما للدولة العثمانية فى جنوب أفريقيا ، على أن يكون مقره كيب تاون [٣] . وقد قام وزير الخارجية العثمانية عالى باشا بالاتصال بنظيره البريطانى للحصول على الموافقات الرسيمة من خلال الطريق الدبلوماسى ، حتى تمت الموافقة على ذلك فى مطلع عام ١٨٦٣ [٤] .

وبعد ما عين دى روبيه قنصلا عام للدولة العثمانية فى جنوب أفريقيا ، وكمؤشر على مدى الاهتمام العثمانى بالمسلمين فيها ، وعلى تقدير الدور الذى لعبه لأعوام عدة لصالح قضية المسلمين ، وجهت إليه دعوة لزيارة القسطنطينية فى غضون عام ١٨٦٣ [٥] على بعد عشرة آلاف ميل شمالا ، وذلك على الرغم من ظروفه الصحية، والتزاماته البرلمانية [٦] .

وفى القسطنطينة تحدث دى روبيه عن أوضاع المسلمين فى الجنوب ، شارحا إياها، وموضحا تردى أوضاعهم وحاجتهم للحماية والرعاية والأموال للحفاظ على عقيدتهم ، وبناء مدارس ومستشفيات لهم ، وكذلك نبه إلى أوضاع مسلمى ناتال

---

(١) C . O . 48/444 , p . 83 , and Kollisch : Op . Cit . , p . 12 .

(٢) C . O . OP . Cit , and Kollisch : OP . Cit , p . 13 .

(٣) C . O . OP . Cit . , p . 199 , and Kollisch : OP . Cit . , p . 45 .

(٤) C . O . , 48/444 , Ali Pacha to Mr . P . , E . De Roubaix , March , 3 , 1863 .

(٥) C . O . , OP . Cit . , p . 193 , and Kollisch : Op . Cit . , p 32 .

(٦) C . O OP . Cit . , p . 180 , and Kollisch : OP . Cit . , p . 7 .

من الهنود ، وما يعانونه من فقر مدقع ، وظروف غير إنسانية فى السكن والصحة والعمل ، وتلقى دى روبيه توجيهات واضحة بتوفير الحماية لهم ورفع المظالم التى يتعرضون لها من البيض ومساعدتهم فى الحياة المسالمة الملتزمة بالولاء للحكم البريطانى . أما على صعيد العقيدة فقد كلف دى روبيه بالعمل على تأسيس عدد من المساجد على نفقة الدولة العثمانية ، مع توفير فرص التفاهم بين المسلمين المتصوفة وإخوانهم من السلفيين ، وموافاة وزارة الخارجية العثمانية بطلباتهم للنظر فيها . وتقرر أن يتم الاتصال بين دى روبيه والوزارة بواسطة السفير العثمانى فى لندن ؛ باعتبار خضوع مستعمرتى ناتال والكيب تحت الحكم البريطانى، وسهولة وغزارة المواصلات عبر هذا الطريق [1] . وبعد الاتفاق على أسلوب العمل زار دى روبيه بعض الدول الأوروبية ، سيما فرنسا وبريطانيا ، ثم قفل عائدا إلى كيب تاون [2] .

وفى ١١ فبراير ١٨٦٤ أرسل عالى باشا وزير الخارجية العثمانية إلى دى روبيه القنصل العثمانى العام فى جنوب أفريقيا خطابا يشكره على « الحماية التى يوفرها لمسلمى تلك البلاد ، ودفاعه عن مصالحهم » ، ويبلغه بفرمان السلطان بمنحه النيشان المجيدى من الطبقة الثالثة The third class of the imperial order of the medjedie . وقد وافق الباب العالى كذلك على إمداد دى روبيه بميزانية لائقة لتمويل بناء المساجد الجديدة وإصلاح أحوال المساجد القائمة ، ومساعدة المسلمين على تحسين أحوالهم [3] .

وفور وصول دى روبيه إلى كيب تاون استقبلته وفود مسلميها ، فدعاهم فى منتصف فبراير ١٨٦٤ إلى اجتماع يضم الأئمة والقادة ، ليشرح لهم نتائج زيارته ، ولينسق بينهم العمل لتوطيد أوضاعهم ، وتوفير الحماية والرعاية لهم ، وحل الخلافات فيما بينهم ، وعندما تم ذلك رفع دى روبيه تقريرا إلى عالى باشا ضمنه نتائج الاجتماع [4] . وفى غضون ذلك وصله الفرمان العثمانى بمنحه النيشان

---

(١) قبل افتتاح قناة السويس .

(٢) C . O . OP . Cit . , p . 193 , and Kollisch : OP . Cit . , p . 32 .

(٣) C . O 48/444 , p . 181 , Aali Pasha to Mr . De Roubaix , Feb . , 11 , 1864 .

(٤) Ibid . , p . 193 , De Roubaix to Aali pasha , Feb . 18 , 1864 .

المجيدى فى ابريل ١٨٦٤ . وبينما رد بخطاب شكر [١] ، وصله خطاب من عالى باشا بتاريخ ١٠ مايو ١٨٦٤ يشكره على جهده « لحماية المسلمين » من المظالم التى يتعرضون لها » [٢] .

وقد أشادت صحافة الكيب بجهود دى روبيه التى أطلقت طاقات مسلمى الكيب من عقالها ، ودفعتهم للمشاركة الفعلية فى الأنشطة المجتمعية ، وصيانة البيئة التي يحيون فيها ، وزادت من فائدتهم لمجتمع الكيب ، وأشادت هذه الصحف بمواقفه من المسلمين ، « رغم كونه مسيحيا » [٣] .

كانت الخطوة التالية هى قيام دى روبيه بمد رعايته إلى مسلمى ناتال الهنود ، وكذلك مسلمى الإقليم الشرقى من مستعمرة الكيب . فقد قام بزيارة لمدينتى بورت اليزابيث و « جراهامزتاون » ، واجتمع بالمسلمين فيهما ، وبحث مطالبهم التى تركزت فى البحث عن عمل ، وكف يد الشرطة عنهم ، والسماح لهم بممارسة التجارة ، وبناء مسجد جامع فى كل من المدينتين . وقد وجه إليه المسلمون خطاب شكر مفتوح بتاريخ ٢٣ مايو ١٨٦٤ ، يعلنون فيه تقديرهم « للجهد غير المسبوق ، لشخص من المسيحيين ، لرعايته الأحوال الاجتماعيةوالمعنوية للمسلمين فى جنوب أفريقيا » [٤] .

ومع العمل الشاق الذى قام به دى روبيه ، وتكرار اتصاله بالدولة العثمانية لتوفير التمويل للخدمات التى يحتاجها المسلمون ، وبصفة خاصة بناء المساجد ومكاتب تحفيظ القرآن ، بدأ المسلمون يشعرون بشديد الامتنان للدولة العثمانية وأرادوا التعبير عن ذلك الشعور بالاحتفال بعيد ميلاد السلطان العثمانى [٥] .

ومن الملاحظ أن ازدياد النفوذ العثمانى فى جنوب أفريقيا كان يدعم العناصر الصوفية من مسلميها ، على حساب السلفيين ، ومن أجل ذلك فقد صارت قضية الاحتفال بعيد ميلاد السلطان العثمانى مثار خلاف بين الفريقين وكان واحد

---

(١) Ibid . , p . 181 , De Roubaix to Aali pasha . April 8 , 1864 .

(٢) Ibid . , Aali pasha to Mr . De Roubaix , May 10 , 1864 .

(٣) C . O . 48/444 , p . 181 , and Kollisch : Op . Cit . , p . 9 .

(٤) C . O . OP. Cit., . , p . 182 , and Kollisch : OP. Cit , pp . 9 - 10 .

(٥) C . O . OP. Cit . , p . 13 , and Kollisch : OP. Cit . , p . 32 .

من أشهر مساجد مسلمى الكيب وهو مسجد الشارع الطويل long's Mousque فى كيب تاون ميدان الخلاف . وكان رأس السلفيين شخص يدعى عبد الكريم ، كان من قيادات جماعة أنصار السنة prophet's followers وقد تجادل عبد الكريم مع إمام المسجد الشيخ إسماعيل حول مشروعية الاحتفال بعيد ميلاد السلطان . وبينما رأى عبد الكريم عدم جوازه شرعا لعدم ورود نص بشأنه ، كان من رأى الشيخ إسماعيل بأنه لا ضير من الاحتفال به باعتبار السلطان العثمانى رمزا لوحدة المسلمين ، وأن الاحتفاء به يبعث على تماسك مسلمى الكيب وترابطهم ، واعتزازهم بأنفسهم ، وأنه وإن لم يكن قد ورد نص يجيز مثل هذه الاحتفالات ، فإنه لم يرد نص يمنعها ، وأنه ليس منها ضرر ، بل هى ذات نفع كبير ، ولقد كانت المجادلة حول الاحتفال شديدة وغير متكافئة فقد كانت الغالبية العظمى من المسلمين مؤيدة لموقف الشيخ إسماعيل ، مما أفقد عبد الكريم ورفيقين له صوابهم ، فقاموا بالاعتداء على بعض المعارضين لهم ، وقد سارع دى روبيه إلى التدخل فى النزاع ، وراح يتوسط للمصالحة لبضعة أيام وحتى أيقن من الفشل « بسبب عدم تراجع عبد الكريم ومن معه « واستمرارهم فى الاعتداء على إخوانهم من المتصوفة، فرفع الأمر إلى القضاء ، وثبت اعتداء الثلاثة على عدد من الناس ، « ووقع عليهم عقاب لردعهم عن تكرار ذلك ، ولكى يعلموا أن العادات الاجتماعية والسياسية المحمودة التى تستجيب لمشاعر البشر ، هى أمور متغيرة من عصر لعصر ، وأن الاحتفال بها إن لم يكن جزءاً من صميم الدين ولا العقيدة ، فإنه جزء من حياة الناس ، ولا يتنافى مع أية عقيدة »[1] .

وقد أنهى العقاب الذى تاله المتشددون أزمة طويلة بينهم وبين عامة الناس من مسلمى الكيب ، ولفترة طويلة قادمة ، ومن ثم تهيأت الظروف الملائمة للاحتفال بعيد ميلاد السلطان العثمانى ، والذى رعاه قنصله العام دى روبيه ، وشارك فيه المسلمون الهنود فى ناتال ، وكذا مسلمو الملايو فى الكيب[2] .

وقد استمر القنصل العثمانى العام يعمل على توطيد الصلة بين الحكومة العثمانية ومسلمى جنوب أفريقيا . ونتيجة لذلك صارت هذه الحكومة تحظى بسمعة طيبة واحترام بالغ ، وصارت أسماء الوزراء العثمانيين ، سيما عالى باشا وزير

---

(١) C . O . 48/444 , p . 183 , and Kollisch : Op . Cit . pp . 13 - 13 .

(٢) C . O . OP .Cit and Kollisch : OP . Cit .

الخارجية، من الأسماء المشهورة فى جنوب أفريقيا ، والتى تذكر دوما مع ذكر أقرانهم البريطانيين ، وساد مسلمى جنوب أفريقيا شعور بأنهم بوسعهم الاستفادة من نفوذ الحكومة العثمانية فى كثير من الأمور ، المعنوية منها والمادية استفادة مباشرة ، لم تكن متاحة قبل بضعة سنوات مضت (١) .

وكان من الاختبارات الحقيقية التى واجهها المسلمون الهنود فى بورت اليزابيث بناء المسجد الجامع بالمدينة ، إذ أحاطت بتلك المهمة محاولات عنيفة للحيلولة دون ذلك، ومشاعر عنصرية كارهة لكل ملون . ولكن كافة المشاعر والإجراءات جرى تذليلها بفضل الصبر والإصرار والدأب ، سواء من المسلمين أم من مستر دى روبيه، حتى أمكن أخيرا ، وفى مطلع عام ١٨٦٦ ، الانتهاء من بناء المسجد . ولما كان لمساهمة الدولة العثمانية المادية والسياسية دورها فى ذلك فقد رفع دى روبيه تقريرا بهذا الصدد إلى الخارجية العثمانية بتاريخ ٨ فبراير ١٨٦٦ (٢) .

وقد رد عالى باشا فى التاسع من مايو ١٨٦٦ بخطاب يشكر فيه دى روبيه ويؤكد له أنه يتابع بعين الرضا « حماسه لرعاية المسلمين من أبناء المالايو فى بورت اليزابيث » ، ويهنيء بالانتهاء من مسجد المدينة الجامع (٣) . ومن الملاحظ على هذا الخطاب أن وزير الخارجية العثمانية لم يكن يعلم أن مسلمى بورت اليزابيث من الهنود وليسوا من أبناء المالايو (٤) .

وقد تعرض نفوذ الدولة العثمانية فى الجنوب لاختبار حقيقى ، تطلب أقصى جهد من قنصلها العام ، سواء على صعيد تهدئة المسلمين ، وكبح جماح شبابهم بصفة خاصة من ناحية ، أم على صعيد الاتصال بالمسئولين فى مستعمرة الكيب من ناحية أخرى ، أم على صعيد أداء دوره بفعالية فى برلمان الكيب ، الذى كان عضوا فيه من خلال عضويته فى المجلس التشريعى .

فخلال الدورة البرلمانية لعام ١٧٦٧ نوقش مشروع قانون التعليم ، وكان يتضمن مادة تنص على اشتراط تعليم العقيدة المسيحية فى المدارس التى تتلقى معونة حكومية، ولما كان دى روبيه قد سعى بجدية لكى تمنح الحكومة مدارس المسلمين

(١) C . O . OP . Cit . , p . 192 , and Kollisch : OP . Cit . , p . 30 .

(٢) C .. O . 48/444 , p . 182 , De Roubaix to Aali pasha , Feb . 8 , 1866 .

(٣) Ibid . , p . 183 , Aaii pasha to Mr . De Roubiax , May 9 , 1866 .

(٤) Ibid .

المنح والمعونات الحكومية ، فقد كان معنى تلك المادة أن يجبر المسلمون على تعلم العقيدة المسيحية (١) .

وقد انتقلت القضية خارج جدران البرلمان ، وحظيت بانتشار واسع عبر مختلف الصحف ، حتى صارت من قضايا الرأى العام ، وأعلن دى روبيه ، سواء فى البرلمان أم فى الصحف ، أن حرية العقيدة قاعدة مقررة بمقتضى دستور المستعمرة ، وأن دولة ليبرالية كبريطانيا لا ينبغى لها اتخاذ الإجراءات لتغيير عقيدة أتباع ديانة سماوية . وبدأ المسلمون حملة لجمع التبرعات توطئة لرفض المعونة الحكومية لمدارسهم ، حتى يتجنبوا أن تفرض على أبنائهم دراسة العقيدة المسيحية فيها . وفى اليوم المحدد للتصويت ساد البرلمان جو من الصراع والجدل . وأخيرا استثنى المسلمون من شرط تعليم المسيحية . وجاء ذلك بعدما ظفر هذا الاستثناء بأغلبية اثنين وعشرين صوتا مقابل سبعة أصوات (٢) .

كان التحدى الذى شكلته القضية آنفة الذكر ذا أثر مزدوج ، حيث تآلفت قلوب المسلمين ، واجتمعوا على مجابهة التحدى ، وذابت الخلافات ، وتوحدت الجماعات المتناحرة ، والتف الجميع حول دى روبيه يؤازرونه فى موقعه الإنسانى والرسمى العظيم . هذا من جهة . ومن جهة أخرى فقد توفرت أموال التبرعات ، وبدأوا فى بحث وجوه انفاقها ، ومن الواضح أن مناقشة واسعة دارت حتى توصل المسلمون إلى توجيهها إلى مجالين ، الأول تنظيم رحلات الحج إلى الأراضى المقدسة فى مكة والمدينة ، والثانى تعليم اللغة لعربية فى المدارس . وقد أدى هذا إلى توثيق الصلات بين مسلمى الجنوب والدولة العثمانية . وساقتهم رحلة الحج إلى الأزهر لتتوثق صلتهم به بعد ذلك ، وشهدت فترة السبعينيات من القرن التاسع عشر إيفاد أعداد متزايدة من الفتيان والشبان إلى القاهرة لتلقى تعليمهم بالازهر (٣).

وقد أدى تجاوز المسلمين لأزمة التعليم المسيحى إلى دعم مشاعرهم تجاه التأييد الذى نالوه من دى روبيه القنصل العثمانى العام ، وقد عبروا عن تلك المشاعر بجعل الاحتفال السنوى البسيط ، الذى بدأوه عام ١٨٦٤ ، بعيد ميلاد السلطان العثمانى فى لتاسع من فبراير ١٨٦٧ ، حدثاً ضخما لا ينسى ، يتناسب مع ما

---

(١) C . O . 48/444 . p . 194 , and Kollisch : Op . Cit . , p 35 .

(٢) Ibid .

(٣) C . O . OP . CIT . , p . 195 , and Kollisch : OP . CIT , p . 36

قدمه لهم السلطان عبد العزيز وقنصله العام ، فى وقت تكالبت عليهم فيه قوى المبشرين والعنصريين البيض [١] .

وهكذا أقام المسلمون احتفالا مهيبا ، وكانت مساكنهم ومساجدهم فى أبهى مظاهرها ، فأقيمت الزينات ، وأضيئت الشوارع ، وعلقت الرايات فى كل مكان يقيمون فيه ، ودعا المسلمون كبار المسئولين ، كما توافدت إلى المساجد جماعات من البيض منذ الصباح وحتى المساء ، حيث قدمت صنوف من طعام مسلمى الملايو ، حتى ساعة متأخرة من الليل ، وكان اليوم سعيدا ، والحفل بهيجا ، والمشاعر فياضة [٢] .

ولقد شارك فى الحفل قرابة الثلاثة آلاف مسلم . وعلى الرغم من أن الاحتفال تم فى يوم السبت ، وهو من أيام العمل الكثيفة والمزدحمة فى مجتمع الكيب ، إلا أنه كان واضحا أن العمال من مسلمى الملايو ، قد حصلوا على أجازة أو إذن بترك عملهم للمشاركة فى الاحتفال [٣] .

وقد مدت الموائد لتناول طعام الغذاء والعشاء من منتصف النهار وحتى الساعة الثامنة مساء ، وبصفة خاصة فى المسجد الرئيسى الواقع فى شارع تشيابانى Chiappini ، الذى تم تزيينه بالرايات الخضر ، والأعلام ذوات الأهلة ، وأعلام عدد من الدول التى دعيت للحفل ، والعلم البريطانى بطبيعة الحال . وقد ألقى دى روبيه وعدد كبير من الأئمة الخطب للإشادة بالسلطان العثمانى والتهنئة بعيد ميلاده . كما « أقيمت صلاة شكر ، ورفع الدعاء إلى الله عز وجل فى كل المساجد بأن يحفظ الله السلطان ، جزاء رعايته لمسلمى المستعمرة على الرغم من البعد الشاسع الذى يفصلها عن ممتلكات جلالته » [٤] .

وكان الاحتفال نموذجا طيبا للمشاعر الفياضة ، وحسن التنظيم والانصباط ، ونفذت فقراته وفقا لبرنامج الحفل ، وكان دليلا على مدى التماسك الذى حققه المسلمون من ناحية ، ومدى تعلق قلوبهم بالسلطان العثمانى رمز المسلمين من ناحية أخرى [٥] .

---

(١) C . O . P . Cit , and Kollisch : OP . Cit . , p . 32 .

(٢) C . O . OP . Cit . , p . 195 .

(٣) C . O , OP . Cit , and Kollisch , OP . Cit . , p . 33 .

(٤) C . O . 48/444 , p . 12 , and Kollisch : Op . Cit . , p . 31 .

(٥) C . O . OP . Cit . , p . 193 , and Kollisch :O P . Cit . , p . 33 .

وقد أرسل الشيوخ والمدرسون والمؤذنون رسالة وقعوها جميعا إلى مستر دى روبيه القنصل العام للسلطان العثمانى ، فى كيب تاون يطلبون إليه نقل التهانى القلبية من المسلمين المجتمعين فى مسجد كيب تاون لجلالة السلطان ، اعترافا بالحماية الكريمة التى يقدمها لإخوته فى الدين من مسلمى جنوب أفريقيا ، وإقرارا بجميله وفضله عليهم ، و « حرصه على بث روح العقيدة لصحيحة والإيمان الصادق ، مما يدل على مشاعره الفياضة تجاه المسلمين فى هذه البقعة القاصية ، حرصه على مصالحهم الروحية والمادية ، وتوفير الحماية للمسلمين ، وتدخله لصالحهم فى ساعة الحاجة إليه ، وتوجيهه لمسئولى الدولة بالعمل على مراعاة ظروفهم ، وتوفير قنصله المتحمس سبل الرعاية لهم » ، وقد أشاد الأئمة بالتعاون المثمر بين الحكومة البريطانية التى يدينون لها بالولاء كرعايا مسالمين ومطيعين وموالين وبين حكومة السلطان العثمانى التى يحظون برعايتها ، « باعتبار السلطان حامل مسئولية الإيمان الإسلامى ، وراعى هلال عقيدته ، ورمزه الأعلى ، وأخا فى الدين ، وراعيا لسنة النبى محمد عليه الصلاة والسلام » [1] .

على هذا النحو إذًا استقرت أوضاع المسلمين فى رعاية دى روبيه القنصل العثمانى العام . ولقد أدى افتتاح قناة السويس إلى توفير إمكانية السفر على متن السفن العابرة منها إلى جنوب أفريقيا . ولقد أدى هذا إلى اهتمام مصر منذ عهد الخديو إسماعيل بالمنطقة الواقعة إلى الجنوب منها ، ومن ثم جرى الاتصال بجنوب أفريقيا لترتيب استقبال الوافدين منها ، ورعايتهم صحيا ، عبر الحجر الصحى . وجرى تبادل كثير من المراسلات بهذا الصدد [2] .

والواقع أن ذلك الوضع المستجد ساعد على تسهيل سفر مسلمى الكيب إلى القاهرة لتلقى تعليمهم فى الأهر . وقد حدث أن أحدهم شرح باستفاضة لأساتذته فى الأزهر ما اعتبره المشكلة الحقيقية التى يعانى منها أهله وذووه ، وهى غياب وجود عالم أزهرى كبير يمكن له أن يجدد شباب الإسلام هناك ، ويزودهم بقيادة

---

(١) C . O . OP . Cit . , p . 193 , Priests , Gatieps and Billals to His Excellency , B . E . De Roubaix , Consul General of His Imperials Majesty the Sultan of Turkey , Cape Town , Feb . , 19 , 1867 .

(٢) أحمد يوسف القرعى : واقع ومستقبل المسلمين فى جنوب أفريقيا (فى مجلة الفيصل ، العدد ٥٩ ، ص ٤٠) .

مسلمة فاهمة للإسلام ، وقادرة على تعليمهم اللغة العربية ، توطئة لقيامهم بالعمل على كتابة المصحف بالحروف العربية ، وشرحه وتفسيره باللغة المالايووية وبالحروف العربية . ويبدو أن ذلك وجد أذنا صاغية لدى أحد العلماء من الدعاة المسلمين بالأزهر ، لم ترشدنا الوثائق إلى اسمه ، رتب مع تلميذه هذا على أن يكون رجل هذه المهمة الصعبة (١) .

ويبدو أن العالم الأزهرى قام بواجبه على أكمل وجه ، حيث إن الآثار الناجمة عن اضطلاعه بعبء الدعوة الإسلامية ، وتعليم العربية قد ظهرت ظهورا بينا ، على الرغم من خفاء اسمه ، والغياب الكامل لأية معلومات عنه ، ففى دورية Nederlandsche Spectator وتحديدا فى العدد الحادى والخمسين ، الصادر ١٨٨١ ، ما يشير إلى أن شيخا مصريا باشر بنشاط بالغ لبضعة سنوات مضت الدعوة الإسلامية بين مسلمى المالايو ، وأسس مدرسة الأزهر فى كيب تاون ، وأن ذلك ساعد على انتشار الدعوة المحمدية بين الإفريقيين (٢) .

وكتب هاهن ١٨٨٤ يقول بأن الدروس الدينية والخطب التى تلقى يوم الجمعة من على المنابر تلقى باللغة العربية (٣) . وليس ثمة شك أن هذه المعلومات تؤكد أن جهدا ضخما قد بذله هذا الشيخ الأزهرى خلال سنى السبعينيات من القرن التاسع عشر فى سبيل تعليم مسلمى المالايو اللغة العربية . ولعل من المهم البحث عن صلة كل ذلك بالدولة العثمانية ، وقنصلها العام دى روبيه . والواقع أن جهد ذلك العالم المصرى لم يكن منبت الصلة عن جهد تلك الدولة وقنصلها . ذلك أنه فى عام ١٨٧٧ أصدرت وزارة التعليم العثمانية فى القسطنطينية كتابا باللغة المالايووية الكيبية ، مطبوعا بالحروف العربية ، خاصا بمبادىء الدين الإسلامى ، يتناول العقيدة والعبادات والمعاملات . وقد وصل الكتاب إلى الكيب مع مطلع عام ١٨٧٨ ، ووجد فرصة الذيوع والانتشار بين مسلمى المالايو فى المستعمرة (٤) .

---

(١) De Geoje , J . : Mohammedanisch propaganda in (Neder - andsch landsch Spectator , No . 51 , 1881) .

(٢) Ibid .

(٣) Hahn , T . H . : An Index of the Grey Collection at The South African Library , Cape Town , 1884 .

(٤) Rochiin , S . A . : Op . Cit . , p . 53 .

ولا شك أن تعليم الشيخ الأزهرى للغة العربية وحروفها لأبنائهم قد ساعد على ذلك الذيوع والانتشار ، ومهد لقيام الدولة العثمانية بطباعة الكتاب آنف الذكر ، بلغة مسلمى الملايو فى الكيب للمرة الأولى ، وتآلفت على الإعداد له جهود أزهرية وعثمانية على السواء [٢] .

* * *

(١) تدل الوقائع على أن صلة مسلمى الكيب قد توطدت بالأزهر ، إذ توافد أبناؤهم للدراسة به ، ويبدو أن الشيخ عبد الرحمن قاسم جميل الدين الكيبى ، الذى صار وكيلا لمسلمى الكيب بالقاهرة يرعى شئون هؤلاء الأبناء فى مصر ، كان تلميذا من تلاميذ الشيخ الأزهرى المجهول ، كما يبدو أن أحد أقاربه ، وربما كان والده أو عمه ، هو الذى استقدمه للكيب ، وقد شهدت سنى الثلث الأول من كالقرن العشرين وفادات متتالية من مسلمى الكيب ، الذين كان الشيخ عبد الرحمن مسئولا عنها ، ولم تكن هذه الوفادات تتلقى العلم فقط ، بل كانت تعود بكم ضخم من الكتب فى مختلف العلوم الإسلامية والأدبية والعلمية ، بل وبتصميمات للمساجد والجمعيات الدينية الإسلامية ، والأدبية والعلمية ، والخيرية ، راجع عن ذلك : الإمام الحاج عبد الرحمن قاسم جميل الدين – وكيل مفوض للإيمان بكيب تاون ورئيس مدرسة مسجد الأزهر بكيب تاون : كيف دخل الإسلام جنوب أفريقيا فى (مجلة الإسلام الأسبوعية ، العدد الثامن ، الجمعة ١٩ صفر ١٣٥٣ الموافق ١ يونيو ١٩٣٤ ، والعدد التاسع الجمعة ٢٦ صفر ١٣٥٣ الموافق ٨ يونيو ١٩٣٤ . وعنوان المقالة الأخيرة : وفادة أفريقية إسلامية إلى الديار المصرية للتزود بالتراث الإسلامى . وما ورد بها يتناقض تماما مع ما ذكره السير توماس أرنولد من أن الرحالة الأوروبيين والمسلمين لم يولوا اهتماما حقيقيا بالمسلمين فى جنوب أفريقيا ، راجع ذلك فى :

Arnold , Sir Thomas : THE Preaching of islam , london , 1869 , p . 284 .

وهذه الفقرة هى الوحيدة التى تعرضت لصلة مسلمى الكيب بالعالم الإسلامى وما ورد بعد ذلك بكتابه القيم خارج نطاق الفترة التاريخية التى عنى بها البحث .

خاتمة

أدت السياسات الاستعمارية الأوروبية فى جنوب أفريقيا إلى تكريس استيطان عناصر متعاقبة من البيض فى المنطقة . وقد شهدت - لذلك - موجتين استعماريتين كانت أولاهما هولندية منذ عام ١٦٥٢ ، وكانت ثانيتهما بريطانية منذ عام ١٨٠٦ . ولما كان وجود هاتين الدولتين فى المنطقة مرهونا بوجودهما فى الشرق ، فإن هولندا جابهت ثورات مسلمى مستعمراتها بالمالايو وأندونيسيا بنفى زعمائها إلى الجنوب منذ عام ١٦٥٧ . كذلك فإن بريطانيا جابهت ثورات مسلمى الهند بالنفى إلى المنطقة منذ ١٨٥٧ . وبهذا كانت الدولتان مسئولتين عن استيطان المسلمين للجنوب ، على الرغم من أن قرنين من الزمان فصلا بين بداية إجراءات كل منهما . كذلك فقد استقر مسلمو المالايو فى كيب تاون وغيرها من مدن مستعمرة الرأس بينما استقر مسلمو الهند فى مدن مستعمرة ناتال المتنوعة .

وقد عانى المسلمون من كافة صنوف الممارسات العنصرية الاستعمارية ، وتعرضوا لإجراءات الاسترقاق والسجن والاعتقال والتعذيب والعمل الإجبارى ، كما قاسوا من كافة صنوف الازدراء والتحامل نظرا لكونهم ملونين من ناحية ، ولكونهم مسلمين رافضين التحول عن دينهم من ناحية أخرى .

وبينما كانت النظم القبلية الإفريقية - ملكية الطابع - تملك من القوة البشرية والموارد الطبيعية ، ما مكنها من الاستمرار فى المقاومة جيلا بعد جيل ، وإن كانت تتراجع دوما مع ذلك ، فإن مسلمى الكيب - ومن بعدهم الهنود - لم يكونوا يملكون القدرة ذاتها ، ولا ميدان الكر والفر الملائم للثورات والحملات العسكرية . ومن ثم فقد اختلفت طريقة مقاومة الفريقين بشكل بين . فبينما كانت المقاومة الإفريقية « بدوية الطابع » ، كانت المقاومة الإسلامية « حضرية الطابع » . لقد اعتبر المسلمون أنفسهم جزءًا من مجتمع يعرضهم لمظالم عليهم أن يقاوموها بأيسر السبل المتاحة ، وأقلها خسائر . وبينما سجل الأفارقة فى سجل المقاومة أسماء زعماء قبليين ، ومعارك دامية خاضوها دفاعا عن وجودهم المستقل ، سجل مسلمو الكيب فى سجل المقاومة أسماء علماء وأشخاص عاديين تعرضوا لكل صنوف

طمس الهوية الإسلامية ، مجابهين إياها بصبر ، ومصرين على مواقفهم بأناة ، حتى مضى على وجودهم نحو ثلاثة قرون ونصف القرن دون أن يظفر المبشرون الأوروبيون منهم بشخص يتحول إلى المسيحية مرتدا عن الإسلام، حتى لو تطلب الأمر الاستشهاد على نحو ما حدث للشهيد جان فان بتافيا.

ولقد حافظ مسلمو المالايو على تماسكهم الاجتماعي ، وصارت لهم أحياء يندر أن تقدم حكومة المستعمرة فيها أية خدمات ، ومع ذلك حافظوا على نظافتها ، واستمروا على تقاليدهم في مناحي الحياة المتنوعة من زى وعادات حياة وزواج وميلاد ووفاة . كما شكل الإسلام محددا هاما من محددات علاقاتهم البينية ، ولفتوا الانتباه إليهم بمظهر النظافة ، وخلق الأمانة ، ومسلك احترام النفس ، والتمسك بالعقيدة ، والصبر على الإيذاء .

ولقد تدعم وضع مسلمي الكيب بإظهارهم الاتساق مع المجتمع الكيبي (نسبة إلى كيب تاون) في عهديه الاستعماريين . فهم لم يتورطوا في مذابح عامة ، حين تخلو مدينة كيب تاون من حاميتها ، ثم هم من أشد المدافعين عنها حين غزاها البريطانيون ، أو حين دقت أبوابها هجمات القبائل الإفريقية . فإذا أضفنا إلى ذلك امتهانهم أعمالا مهنية شتى ، علمنا أن الفائدة التي حققوها للمجتمع جعلت لهم منزلة ومكانة محترمتين، رغم مشاعر البغض العنصري والتحامل الديني .

وحقق مسلمو الكيب نجاحات متوالية بعد السياسة التي اتبعها الحكم الاستعماري البريطاني ، بتحرير الرقيق ، وإقرار المساواة المدنية بين الأجناس ، فراحوا يوظفون الفائض القليل من المدخرات في طبع الكتب الدينية ، أما المصاحف فكان المتعلمون منهم يحرصون على شغل أوقات فراغهم بكتابتها بأيديهم ، ويتوارثونها جيلا بعد جيل ، كما حافظوا على أسلوب تربوي معين يحافظون به على عقيدة النشء ، سواء من خلال تحفيظ الصغار القرآن والعبادات في الكتاب والمسجد ، أم من خلال الطرق الصوفية ، وعضوية الفتيان فيها منذ سن الرابعة عشرة ، بعد عهد يقطعونه على أنفسهم أمام الشيخ بالالتزام بعبادات وآداب وأخلاقيات العقيدة والطريقة وقد نجحوا في عام ١٨٥٦ في طبع أحد الكتب الخاصة بالعقيدة .

وبينما هذا الصعود الإسلامي يتنامى في الكيب كانت الدولة العثمانية تعاني من حرب القرم ، وكانت الدول الكبرى في مؤتمر باريس في مارس ١٨٥٦ وعقبه ،

تقرر توفير الحماية لها من المطامع الروسية ، بينما سعت الدولة إلى الاتساق مع الوضع الدولى بإقرار مبادىء ليبرالية إزاء الأقليات المسيحية الخاضعة لحكمها فى شرق أوربا . ومهد لها هذا أن تلعب دورا نشطا لمعاونة الأقليات الإسلامية الخاضعة للحكم الاستعمارى الأوروبى . ولكنها لم تكن قد سمعت عن مسلمين بالكيب قط . فإذا بحادثة خلاف بسيط بين السنيين والمتصوفة تصل إلى علمها عن طريق أحد مسئولى المستعمرة ، فراحت تبحث الأمر برمته . وهكذا التقى الطرفان الدولة العثمانية ، مركز العالم الإسلامى ، آنئذ ، ومسلمو الكيب ، إحدى الأقليات الإسلامية النائية الخاضعة للحكم الاستعمارى البريطانى . الطرف الأول : يسعى إلى الظهور بمظهر دولة الإسلام الكبرى ، « بحسب الخلافة » ، وباعتبارها حامية الحرمين الشريفين ، وتريد أن تمتد جهودها فى الأطراف لتدعم وجودها فى المركز والطرف الثانى : يمد يده عبر أحد الوسطاء الأوروبيين المسيحيين ، لئلا يثير حفيظة الحكومة البريطانية ، كى تصافح يد المركز ، عسى ذلك يؤكد الهوية الإسلامية للمسلمين فى الكيب ويدعمها .

وأما الوسيط المسيو دى روبيه فكان رجلا من ذلك الطراز من « الإنسانيين » الذين أفرزهم القرن التاسع عشر ، من أصحاب المواقف ، وحملة أمانة « الليبرالية الأوروبية » فى صورتها المشرقة . سعى بحسم ودقة إلى توفير الحماية لمسلمى الكيب ومد يد العون للهنود ، لما تزايدت أعدادهم فى الجنوب منذ عام ١٨٥٧ وما بعده فأكد حريتهم فى اعتناق عقيدتهم ، وفى التمتع بها ، وفى نفس الوقت وجه نشاطهم صوب الحفاظ على حياتهم فى المستعمرة ، والتزامهم بالقانون، وانضباطهم فى ظل النظام العام .

وإذا كان البحث يشكل صفحة مشرقة من تاريخ الدولة العثمانية ، التى كانت آنئذ ، تمر بسنين عجفاء ، فإنها ، ولا شك ، صفحة مشرقة من صفحات التاريخ الأوروبى فى أفريقيا ، الذى لم يعدم رجلا نابها مستنيرا يؤدى دوره الإنسانى دون تميز أو تمييز ، فى عصر استعمارى سحق هامات الأحرار من أبناء أفريقيا وأذلهم لنظم استعمارية تستنزف طاقاتهم ، لتصب آخر الأمر فى الخزائن الأوروبية ، ويعلو بها صرح حضارتهم درجات ودرجات ، بينما يهبط هؤلاء دركا بعد درك .

وإذا كانت الروح التى عبر عنها الأطراف الثلاثة روحا مطلوبة آنئذ فهى مطلوبة أكثر فى سنى عصر المعلومات ، الذى تحول فيه البشر إلى أرقام ، وازداد الفارق

بين الأغنياء والمتقدمين ، وبين الفقراء والمتخلفين ، وتعالت المواجهات الاجتماعية والدينية ، بعد تراجع المواجهات الأيديولوجية بين الاشتراكيين والرأسماليين . لقد قدمت الدولة العثمانية روح البذل ، رغم ضيق ذات اليد ، وقدم مسلموا الكيب روح الإصرار ، رغم الحصار ، وقدم دى روبيه روح الإنصاف رغم العنصرية والتعصب والإجحاف .

ولقد أفضى الاهتمام العثمانى بالمنطقة ومسلميها إلى تعيين أول قنصل عثمانى فى هذا الموقع البعيد - أولا ، وإلى تمكين المسلمين من الحصول على آلية ديبلوماسية للضغط من قبل دولة كبرى تربطها ببريطانيا روابط المصلحة آنئذ - ثانيا ، ثم تمكينهم من الحصول على آلية سياسية برلمانية للضغط لصالحهم فى المسائل الحياتية - ثالثا . ولقد أسفر هذا وذاك ، مع حركة إسلامية نشيطة كانت قادرة على توزيع الادوار ، وعلى الخطاب الحضارى ، فى ظل ظروف استعمارية قاهرة ، عن تمكين المسلمين من الظفر بدعم مالى للأنشطة والخدمات المختلفة ، سيما الصحية والتعليمية والدينية . ولقد نجوا بفضل ذلك من فرض التعليم المسيحى عليهم أو حرمانهم من الدعم الحكومى لهذه الأنشطة والخدمات .

كذلك فقد أسس مسجد بورت اليزابيث الأول لمسلمى الهند بفضل رعاية الدولة العثمانية ، ثم توالى إصلاح المساجد القديمة ، وتأسيس مزيد من المساجد الجديدة. كما ازداد اتصال مسلمى جنوب أفريقيا بالدولة العثمانية ، من خلال رحلات الحج والعمرة والتعليم ، وهو ما انتهى المطاف به إلى الأزهر ، حيث قام عالم مصرى جليل بتلبية دعوة كريمة من مسلمى الملايو بالكيب ، حيث أسس مدرسة أزهرية بكيب تاون ، لتكون نواة لبعثة إسلامية أزهرية فى جنوب أفريقيا ، وليكون أحد خريجيها بعد ذلك مسئولا عن استقبال مسلميها فى الأزهر وتوفير الرعاية لهم مع سنى القرن العشرين الاولى .

وهكذا يمكن القول إنه على الرغم من ضعف « الوجود » العثمانى الفعلى فى جنوب أفريقيا إلا أن اهتمام العثمانيين بالمنطقة وفر « نفوذا » طيبا ، معتمدا على تفهم الحكومة البريطانية ، وحكومة المستعمرة ، ومستخدما شخصيات متفهمة أفادت الطرفين : الطرف الاستعمارى البريطانى ، حيث زادت مشاركة المسلمين فى العمل العام ، وزادت جهودهم التطوعية ومن ثم زاد ولاء المسلمين للحكم البريطانى على الرغم من التدخل . أما الطرف الإسلامى ، فجنى مزيدا من

الخدمات والتسهيلات ، وازدد تمسكا بهويته الإسلامية ، التى لم تتعارض مع الولاء للحكم البريطانى ، أما الطرف الفاعل الخارجى ؛ أى الدولة العثمانية ، فتدعمت صورتها كدولة الإسلام الأولى ، وذلك بإبراز رعايتها لمسلمى الأطراف ، وصارت تجربة رعاية مسلمى جنوب أفريقيا نموذجا مكثفا لوضع الدولة العثمانية هذا ، والقدرة الدبلوماسية على تحقيق تبادل دقيق للمصالح ، دون أن يخسر طرف من حيث يكسب الآخر . ولقد جاء تبادل المصالح هنا دليلا على إمكانية تعايش الأقليات ، واستفادة الجميع من العلاقات المباشرة ، ولم تسفر عن دعم اتجاهات ثورية لدى المسلمين ، وإن كانت قد حدت من الاتجاهات العنصرية لدى البيض .

ومع هذا كله ، فإنه من الواضح أنه لم يكن بوسع الدولة العثمانية أن تقوم بدورها هذا لولا وجود قاعدة إسلامية قوية وحضارية فى ذات الوقت ، استندت إليها ، وتحركت من خلالها ، وكذلك ما كان لها أن تتم هذا الدور لولا وجود شخصية مثل دى روبيه بتكوينها النفسى والحضارى وعطائها السياسى والإنسانى فى آن معا .

ويبقى أن الدور - أى دور - والموقف - أى موقف - هما ترجمة حقيقية لإرادة الحفاظ على « التمايز » . فقد « امتاز » المسلمون فى الكيب بهذا الموقف وتلك الإرادة ، وأبوا أن يذوبوا فى مجتمع البيض ، وحافظوا بذلك على هُويتهم الإسلامية . وعندما انضاف إليهم المسلمون الهنود بعد قرنين من الزمان ، أخذوا نفس موقف التمايز ، وكانت لهم نفس إرادة الدفاع عنه ، ولقد حافظ المسلمون رغم ذلك على كافة ملامح « الترابط الاجتماعى » داخل مجتمع الكيب ، ومجتمع ناتال .

وكانت الدولة العثمانية المترابطة بقوة مع معطيات السياسة البريطانية فى هذه الفترة تملك الإرادة ، وتبحث لنفسها عن دور إسلامى ، وتترابط بقوة أيضا مع مسلمى الأطراف ، مؤكدة تمايزها وتمايزهم عن الوسط الأوروبى والإفريقى فى ذات الوقت .

* * *

المصادر والمراجع

أولا : الوثائق غير المنشورة :

- C . O . 48/444 , THe Muslims of South Africa .

- C . O . 48/444 , Kollisch , Maximilien : The Mussulman Population at the Cape of Good Hope , Constantinople Levant Herald Office , 1867 .

- C . O . 48/444 , Testimonials , Presentations and Addresses to the Right Hon . P . E . De Roubaix , M . L . C . , Cape Town , Albion press , Hout St . 1863 .

ثانيا : الوثائق المنشورة :

- Hahn , T . H . An Index of the Grey Collection at the South African Public library . Cape Town ,1884 .

- Parliamentary Papers 1841 , vol . 2 , Hurewitz , j . c . : Diplomacy in the Near East , A Documentary Record , vol . 1 , New york .

- Theal , G . Mccall : Records of the Cape Colony , vols . 28 , 30.

ثالثا : المراجع الأجنبية :

- Alderson , A . D . : The Structure of the Otoman Dynasty , oxford , 1956 .

- Arnold , sir Thomas : The Preaching of Islam , London , 1869 .

- Gib . H . A . R . and Bowen , Harold : Islamic Society and The West , A Study of the Impac of the Western Civilization on Moslem Culture in the Near East vol . 1 , part 1 , oxford , 1950 .

- Golding , George and Joshua , Franklin : The Coloured Community . The South African Way of Life , London , 1953 .

- Joshi , p . c . : Rebellion 1857 . New Delhi , 1957 .

- Lyber , Albrt Bowe : The Government of the Ottoman Empire in the time of Suleiman the Magnificent , Harvard University press , 1913 .

- Theal , George Mccall : History of South Africa , 1795 - 1872, vol . III , London , 1927 .

- Walker , Eric A . : A History of South Africa , London , 1941 .

- Zwemer : Across The World of Islam , London , 1923 .

رابعاً : الدوريات الأجنبية :

- Cape Town Paper .

- The Cape of Good Hope Literary Gazette .

- Rochlin , S . A . : Early Arabic printing at the Cape of Good Hope .

- The Morning Herald , Cape Town .

- The South African Commercial Advertiser .

خامسا : المراجع العربية :

توفيق على برو : العرب والترك فى العهد الدستورى العثمانى (١٩٠٨ - ١٩١٤) معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ، ١٩٦٠ .

حسن إبراهيم حسن وآخرون : المجمل فى التاريخ المصرى ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٤٢ .

عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، القاهرة ، بولاق ١٢٩٧ هـ ، الجزء الأول .

ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية ، معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ، ١٩٥٧ .

السيد فليفل : نظم الحكم العنصرية فى جنوب أفريقيا (١٨٠٦ - ١٩١٠) ، مركز الحضارة العربية ، القاهرة ، ١٩٩٠ .

عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية ، دولة إسلامية مفترى عليها ، الجزءان الأول ، والثانى ، الانجلو المصرية ، مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٨٠ .

محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثمانى ، أسباب انحطاط الإمبراطورية العثمانية وزوالها ، بيروت ، ١٩٥٤ .

محمد فؤاد كوبريلى : قيام الدولة العثمانية ، ترجمة الدكتور أحمد السعيد سليمان ، القاهرة ، ١٩٦٧ .

سادسا : الدوريات العربية :

إبراهيم عبد المجيد : ثورة الهند (١٨٦٧ - ١٨٥٨) فى (دورية كلية الآداب ، جامعة المنصورة ، العدد ٧ ، ١٩٨٧) .

أحمد يوسف القرعى : واقع ومستقبل المسلمين فى جنوب أفريقيا فى (مجلة الفيصل العدد ٥٩) .

عبد الرحمن قاسم جميل الدين : (الإمام - وكيل مفوض الإيمان بكيب تاون ورئيس مدرسة مسجد الأزهر) : كيف دخل الإسلام جنوب أفريقيا فى (مجلة الإسلام الأسبوعية ، العدد الثامن ، الجمعة ١٩ صفر ١٣٥٣ ، الموافق ١ يونيو ١٩٣٤) .

سابعا : بحوث :

السيد فليفل : « ترابط الأحداث التاريخية بين مصر وجنوب أفريقيا » فى د . إبراهيم نصر الدين (محرر) ، مصر وأفريقيا : مسيرة العلاقات فى عالم متغير (القاهرة : معهد البحوث والدراسات الإفريقية ، جامعة القاهرة ، ١٩٩٦) .

عمر الصديق عبد الله : أضواء على أوضاع المسلمين واللغة العربية فى جنوب أفريقيا فى (بحوث المؤتمر العالمى السادس للندوة العالمية للشباب الإسلامى ، ١٢- ١٧ جمادى الأولى ١٤٠٦ هـ) .

ثامناً : رسائل جامعية :

ثناء منير صادق : الهنود فى جنوب أفريقيا (١٨٦٠ - ١٩٢٧) ، رسالة ماجستير غير منشورة ، معهد البحوث والدراسات الإفريقية ، جامعة القاهرة ، ١٩٩٣ .

السيد على أحمد فليفل : جمهورية جنوب أفريقيا (١٨٥٧ - ١٩٠٢) رسالة ماجستير غير منشورة - معهد البحوث والدراسات الإفريقية جامعة القاهرة ، ١٩٨٠.

السيد على أحمد فليفل : مستعمرة الرأس البريطانية (١٨٥٣ - ١٩١٠) ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، معهد البحوث والدراسات الإفريقية ، جامعة القاهرة، ١٩٨٣ .

تم بحمد الله

* * *

قائمة إصدارات المركز

١- سلسلة دراسات إفريقية.

١- د. حمدى عبدالرحمن ، العسكريون والحكم فى إفريقيا ١٩٩٦

٢- محمد عاشور، الحدود السياسية وواقع الدولة فى إفريقيا ١٩٩٧

٣- د. ابراهيم نصر الدين، الاندماج الوطنى فى إفريقيا: نموذج نيجيريا ١٩٩٧

٤- د. حمدى عبدالرحمن، قضايا السياسة والحكم فى إفريقيا ١٩٩٨

٥- د. على مزروعى ، إفريقيا والإسلام والغرب (مترجم) ١٩٩٨

٦- على الحسن كمارا، الغزو الفكرى لدول غرب إفريقيا (تحت الطبع)

٢- سلسلة أوراق إفريقية:

١- د. حمدى عبدالرحمن: التعددية وأزمة بناء الدولة فى إفريقيا الإسلامية ١٩٩٦

٢- إمباى لوبشير، قضايا اللغة والدين فى الأدب الإفريقى ١٩٩٧

٣- د. السيد فليفل، الدولة العثمانية والمسلمون فى جنوب إفريقيا ٢٠٠٠

مركز دراسات المستقبل الإفريقي

يعد مركز دراسات المستقبل الإفريقي مؤسسة علمية وفكرية معنية بالشأن الإفريقي وقضاياه المختلفة وذلك لتحقيق المقاصد الآتية:-

- طرح مجموعة من القضايا والإشكالات النظرية في دراسة الواقع الإفريقي الراهن بما يسمح بتقديم إطار مفاهيمي ملائم يمكن التعويل عليه في عملية بناء منهج جديد النظر في الدراسات الإفريقية بصفة عامة.
- التمسك بمفهوم الروح الحضارية الإفريقية التي تم التخلي عنها لأسباب عدة خلال الحقبة الاستعمارية. فالعقلية الاستعمارية لجأت إلى خلق مواطن إفريقي ممزق بين انتماءاته الإقليمية والإثنية والدينية «التقليدية» وجذوره التاريخية غير الرشيدة - وفقاً للزعم الاستعماري - وبين واقعه الاجتماعي والسياسي «الحديث» وأوضاعه الاقتصادية «الرشيدة».
- التأكيد على أهمية النموذج التاريخي الذي يعكس خبرة المجتمعات الإسلامية ولاسيما في غرب إفريقيا قبل الاستعمار، وذلك في سياق الحديث عن الأصالة الإفريقية وبناء نموذج قومي للنهضة والتنمية في الدول الإفريقية.
- توفير الفهم الصحيح للأزمة الإفريقية الراهنة. بما يؤدي إلى تجاوز النموذج المعرفي الغربي وما يرتبط به من صور ذهنية تختزل الواقع الإفريقي.
- ترسيخ أهمية إفريقيا في الفكر الاستراتيجي المصري والعربي والإسلامي، وذلك انطلاقاً من حقائق الجغرافيا والتاريخ والعقيدة، واستناداً إلى حقائق الواقع المعاصر حيث إن إفريقيا بما لها من حقوق وإمكانات بشرية وطبيعية تعد بحق قارة المستقبل.